الشيخ الطاهر بدوي

عبر أجواء رمضان المبارك

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين

مقدمة

لقد أعجبت وما أشد عجبي بكتاب (عبر أجواء رمضان المبارك) للأخ الطاهر بدوي الذي ذكر فيه ما شاء له اجتهاده من حقائق حول رمضان المعظم لا كمجرد قاعدة من قواعد الإسلام الخمس، بل كشهر كله امتناع عن الأكل والشراب منذ بزوغ الفجر إلى غروب الشمس ، كما أورد فيه من فوائده المختلفة الشيء الكثير، من ذلك أنه يحفظ الجسم من آثار الرواسب المضرة والجراثيم المؤدية، ويصقل الذهن ويجعله أكثر عطاء وأجود إفادة وأمتع أفكارا، ويطهر الفؤاد من أمراضه الحسية ويملؤه بشتى أنواع الرحمة والمحبة والخير بصفة شاملة هي حَرِيةٌ بالشكر والثناء، كما

يزكي النفس ويعودها على الصبر والإحتمال والتضحية فيما يعود على المجتمع بالخير العميم ولئن كان لرمضان من فضائل يمتاز بها على سائر الشهور ، فمن أَجَلِّهَا نزول القرآن الكريم في أحد أيامه الأخيرة وكفى بذلك شرفا ونبلا، وإذا كان الصيام من واجبات أمم سابقة فهو أطول منها مدى وأكثر منها نفعا وأعظم منها أجرا.

ومن فضائل رمضان القيمة أنه يوحد المسلمين ويجمعهم كما يفعل في مثله من القواعد ومن بينها الحج الأكبر حيث الطواف حول الكعبة المكرمة والوقوف على جبل عرفات، أليس ذلك أحق بالافتخار به وبغيره من تعاليم ديننا الحنيف؟

فشكرا للأخ الطاهر بدوي على عمله هذا ولا أَخَالُهُ إلا فائزا برضا الله تعالى وبتوفيقه وإعانته.

بقلم الأستاذ

والمؤلف:

إبـــراهيم أبو حميدة

1 - صيام رمضان وفوائده:

أ – متى يجب صيام رمضان:

الصوم لغة الإمساك والكف عن الشيء، يقال: صام عن الكلام أي أمسك عنه. قال تعالى إخبارا عن سيدتنا مريم العذراء عليها السلام: ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾ (مريم / 26) وقال العرب صام النهار إذا وقف سير الشمس وسط النهار عند الظهيرة، وقال الشاعر:

خيل صيام وخيل غير صائمة

تحت العجاج وأخرى تعلك اللجما

وأراد بالصائمة الممسكة عن الصهيل.

وشرعا هو الإمساك عن المفطرات بنية العبادة لله وحده من طلوع الفجر إلى غروب الشمس. أي أن الصوم امتناع فعلي عن شهوتي البطن والفرج وعن كل شيء حسي يدخل الجوف من دواء ونحوه في زمن معين وهو من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس، من كل مسلم مكلف (بالغ عاقل) قادر على صومه، لا على عاجز عنه حقيقة بمرض أو حكما كمرضع لها قدرة عليه ولكن خافت على الرضيع هلاكا أو شدة ضرر، حاضر، لا على مسافر سفر قصر، خالية من حيض ونفاس.

وزمن الصوم كما سبق من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ويؤخذ في البلاد التي يتساوى الليل والنهار فيها، أو في حالة طول النهار أحيانا كبلغاريا وورسيا بتقدير وقت الصوم بحسب أقرب البلاد منها. قال تعالى: " وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل".

قال ابن جرير بإسناده عن سمرة بن جندب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **لا يغرنكم نداء بلال وهذا البياض، حتى ينفجر الفجر أو يطلع الفجر.** ثم رواه من حديث شعبة وغيره. عن سواد بن حنظلة عن سمرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل، ولكنه الفجر المستطير في الأفق**". والفجر المستطير في الأفق يسبق طلوع الشمس بوقت قليل. وكان بلال وابن أم مكتوم رضي الله عنهما يؤذنان الأول لتنبيه النائم والثاني للإمساك عن المفطرات وإعلان وقت الصلاة المكتوبة. قال ابن عبد البر في قول النبي الكريم: إن بلالا يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن مكتوم. دليل على أن الخيط الأبيض هو الصباح وأن السحور لا يكون إلا قبل الفجر بالإجماع.

يجب صيام رمضان بكمال شعبان ثلاثين يوما أو برؤية عدلين وأولى أكثر أو برؤية جماعة مستفيضة، ويعم الصوم سائر البلاد والأقطار ولو بعدت. ولا يثبت الهلال بقول منجم أي مؤقت يعرف سير القمر، لا في حق نفسه ولا غيره لأن الشارع الحكيم أناط

الصوم والفطر والحج برؤية الهلال لا بوجوده إن فُرض صحة قوله، ومن رأى هلال رمضان منفردا وجب عليه صومه بخلاف هلال شوال فلا يجوز له الإفطار برؤيته لئلا يتهم بأنه ادعى ذلك كذبا ليفطر. وان غيمت السماء ليلة الثلاثين ولم ير الهلال فصبيحته يوم شك. وأما لو كانت السماء مصحية لم يكن يوم شك لأنه إذا لم تثبت رؤيته، كان من شعبان جزما. قال عليه الصلاة والسلام:

" فإن غم عليكم فاقدروا له". أي كملوا عدة ما قبله ثلاثين يوما.

ب – الصوم جوهر الاستعاذة بالله:

فالصوم طاعة لله تعالى يثاب عليها المؤمن ثوابا مفتوحا لا حدود له، لأنه لله سبحانه، وكرم الله واسع وينال بها رضوان الله جل علاه واستحقاق دخول الجنان. روى البخاري ومسلم والنسائي والترمذي عن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن في الجنة بابا يقال له الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد. ويبعد المؤمن بالصوم الخالص نفسه عن عذاب الله وسخطه بسبب ما قد يرتكبه من معاص وذنوب، فهو كفارة لجميع السيئات من عام لآخر إلا المظالم وما شابهها فإنها حق العباد ولا تكفر إلا بأدائها كاملة لأهلها.

وبالطاعة يستقيم أمر المؤمن على الحق الذي شرعه الله عز وجل لأن الصوم يحقق التقوى التي هي امتثال الأوامر الإلهية

واجتناب النواهي. قال جل ذكره في سورة البقرة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝١٨٤ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝١٨٥ ﴾ (183 - 185).

ولقد كان من الطبيعي أن يفرض الصوم على الأمة التي يفرض عليها الجهاد في سبيل الله لتقرير منهجه في الأرض، وللقوامة به على البشرية، وللشهادة على الناس. فالصوم هو مجال تقرير الإرادة العازمة الجازمة ومجال اتصال الإنسان بربه اتصال طاعة وانقياد. كما أنه مجال الاستعلاء على ضرورات الجسد كلها، واحتمال ضغطها وثقلها، إيثارا لما عند الله من الرضى والمتاع. وهذه كلها عناصر لازمة في إعداد النفوس لاحتمال مشقات الطريق المفروش بالعقبات والأشواك والذي تتناثر على جوانبه الرغائب والشهوات والذي تهتف بالسالكيه آلاف المغريات. وذلك كله إلى جانب ما يتكشف على مدار الزمان

من آثار نافعة للصوم في وضائف الأبدان وطهارة النفوس وتقارب الأشقاء وتوحيد الصفوف ومحاربة الدخلاء وآثار أخرى قد يجهلها الإنسان ولا يعلمها إلا الله عز وجل.

إن الله تعالى يعلم بعلمه الأزلي القديم أن التكليف أمر تحتاج النفس البشرية فيه إلى عون ودفع واستجاشة لتنهض به وتستجيب له، مهما يكن فيه من حكمة ونفع حتى تقتنع به وتراض عليه. ومن ثم يبدأ التكليف بذلك النداء الحبيب إلى المؤمنين المذكر لهم بحقيقتهم الأصيلة ثم يقرر لهم بعد ندائهم ذلك النداء أن الصوم فريضة قديمة على المؤمنين بالله في كل دين وأن الغاية الأولى هي إعداد قلوبهم للتقوى والشفافية والحساسية والخشية من الله سبحانه. أجل إنها التقوى، الغاية الكبيرة من الصوم... فهي التي تستيقظ في القلوب وهي تؤدي هذه الفريضة، طاعة لله، وإيثارا لرضاه. والتقوى هي التي تحرس هذه القلوب من إفساد الصوم بالمعصية، ولو تلك التي تهجس في البال. والمخاطبون بهذا القرآن يعلمون مقام التقوى عند الله تعالى، ووزنها في ميزانه، فهي غاية تتطلع إليها أرواحهم وهذا الصوم أداة من أدواتها وطريق موصل إليها، ومن ثم يرفعها السياق أمام عيونهم هدفا وضيئا يتجهون إليه عن طريـــق الصيـــام " **لعلكم تتقون** ".

والصوم مدرسة خلقية كبرى يتدرب فيها المؤمن على خصال كثيرة فهو جهاد للنفس ومقاومة للأهواء ونزغات الشيطان التي قد تلوح له وهو سر الاستعاذة بالله وجوهرها قال جل ذكره في سورة

فصلت: ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ ﴾ (36). وفي سورة النحل يخبرنا جل ذكره أن الشيطان مهما قوى كيده لا يؤثر على أهل الله الصادقين: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ (98 - 100).

والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم تمهيد للجو الذي يتلى فيه كتاب الله، وتطهير له من الوسوسة، واتجاه بالمشاعر إلى الله عز وجل خالصة لا يشغلها شاغل من عالم الرجس والشر الذي يمثله الشيطان. فالذين يتوجهون إلى الله وحده، ويخلصون قلوبهم لله، لا يملك الشيطان أن يسيطر عليهم، مهما وسوس لهم فإن صلتهم بالله تعصمهم أن ينساقوا معه، وينقادوا إليه، وقد يخطئون، لكنهم لا يستسلمون، فيطردون الشيطان عنهم ويتوبون إلى ربهم من قريب: "إنما سلطانه على الذين يتولونه "، أولئك الذين يجعلونه وليهم ويستسلمون له بشهواتهم ونزواتهم ومنهم من يشرك به. هؤلاء يحبون الشيطان ولا يحبهم، بل يخيفهم ويريهم سبل الهلاك والدمار ويحثهم على تخريب بيوت عقيدتهم بأيديهم وإرادتهم مع أنهم يحبونه ويبذلون في سبيل إرضائه كل غال ونفيس... قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ

وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ (175).

إن الشيطان هو الذي يضخم من شأن أولئائه، ويلبسهم لباس القوة والقدرة ويوقع في القلوب أنهم ذوو حول وطول، وأنهم يملكون النفع والضر، ذاك ليقضي بهم لباناته وأغراضه، وليحقق بهم الشر في الأرض والفساد، وليخضع لهم الرقاب ويطوع لهم القلوب، فلا يرتفع في وجوههم صوت بالإنكار ولا يفكر أحد في الانقضاض عليهم، ودفعهم عن الشر والفساد.

والشيطان صاحب مصلحة في أن ينتفش الباطل وأن يتضخم الشر، وأن يتبدى قويا قادرا قاهرا بطاشا جبارا، لا تقف في وجهه معارضة، ولا يصمده مدافع، ولا يغلبه من المعارضين غالب. الشيطان صاحب مصلحة فتحت ستار الخوف والرهبة، وفي ظل الإرهاب والبطش يفعل أولياؤه في الأرض ما يقر عينه، يقلبون المعروف منكرا، والمنكر معروفا، وينشرون الفساد والباطل والضلال، باسم القيم الدينية والحقوق الإنسانية ومبادئ العدالة الاجتماعية، وفي الحقيقة يخفتون صوت الحق والرشد والعدل ويقيمون أنفسهم آلهة في الأرض تحمي الشر وتقتل الخير تحت قناع الحرية والمساواة والديمقراطية وما إلى ذلك من الشعارات التي لا تسمن ولا تغني من جوع، دون أن يجرؤ أحد على مناهضتهم والوقوف في وجههم ومطاردتهم وطردهم من مقام القيادة، بل دون أن يجرؤوا على تزييف الباطل الذي يُروِّجون له، وجلاء الحق الذي يطمسونه، والشيطان ماكر خادع يختفي وراء أوليائه، وينشر الخوف

منهم في صدور الذين لا يحتاطون لوسوسته، ومن هنا يكشفه الله سبحانه، ويوقفه عاريا لا يستره ثوب من كيده ومكره، ويعرف المؤمنين الحقيقة: حقيقة مكره ووسوسته ليكونوا منها على حذر فلا يرهبوا أولياء الشيطان ولا يخافوهم، فهم وهو أضعف من أن يخافهم مؤمن يركن إلى ربه ويستند إلى قوته، التي تملك النفع والضر والقوة الوحيدة التي تُخشى وتُخاف، والتي يخشاها المؤمنون بالله وهم حين يخشونها وحدها أقوى الأقوياء فلا تقف لهم قوة في الأرض، لا قوة الشيطان ولا قوة أولياء الشيطان...

ج - الصوم يربي النفوس على الحلم والسماحة:

إن النهوض بواجب الدعوة إلى الله تعالى في مواجهة إلتواءات النفس البشرية، وجهلها واعتزازها بما ألفت، واستكبارها أن يُقال إنها كانت على ضلالة، وحرصها على شهواتها وعلى مصالحها، وعلى مركزها الذي قد تهدده الدعوة إلى إله واحد، كل البشر أمامه سواء... وكلمة الدعوة حينئذ هي أحسن كلمة تقال في الأرض وتصعد في مقدمة الكلم الطيب إلى السماء، ولكن مع العمل الصالح الذي يصدق الكلمة، ومع الاستسلام لله الذي تتوارى معه الذات، فتصبح الدعوة خالصة لله ليس للداعية فيها شأن إلا التبليغ... ولا على الداعية بعد ذلك أن تتلقى كلمته بالإعراض أو بسوء الأدب، أوبالتبجح في الإنكار. فهو إنما يتقدم بالحسنة، فهو في المقام الرفيع وغيره يتقدم بالسيئة فهو في المكان الدون. قال تعالى في سورة فصلت: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى

مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ (33 - 35).

وليس له أن يرد بالسيئة، فإن الحسنة لا يستوي أثرها كما لا تستوي قيمتها مع السيئة والصبر والتسامح والاستعلاء على رغبة النفس في مقابلة الشر بالشر، يرد النفوس الجامحة إلى الهدوء والثقة، فتنقلب من الخصومة إلى الولاء ومن الجماح إلى اللين. وتصدق هذه القاعدة في الغالبية الغالبة من الحالات وينقلب الهياج إلى وداعة والغضب إلى سكينة والتبجح إلى حياء، على كلمة طيبة ونبرة هادئة وبسمة حانية في وجه هائج غاضب متبجح مفلوت الزمام، ولو قوبل بمثل فعله ازداد هياجا وغضبا وتبجحا وتمردا، وخلع حياءه نهائيا وأفلت زمامه وأخذته العزة بالإثم.. كيف قابل الرسول صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة أولئك الذين أخرجوه وأصحابه من ديارهم.. أبالمثل؟ أم بالحلم والسماحة؟ كيف يمنح الأمن لمن دخل بيته أودخل المسجد الحرام أو دخل دار أبي سفيان الذي كان من ألد أعداء الدعوة النبوية؟ ونتيجة هذه السماحة كانت كما تعلم أن دخل الناس في الإسلام أفواجا وعم الأمن والرخاء على الجميع. وأصبحت قولة رسول الله المشهورة: " **اذهبوا فأنتم الطلقاء** " بابا لكل النفحات ولكل الفتوحات على الإطلاق.

غير أن تلك السماحة تحتاج إلى قلب كبير يعطف ويسمح

وهو قادر على الإساءة والرد. وهذه القدرة ضرورية لتؤتي السماحة أثرها، حتى لا يصور الإحسان في نفس المسيء ضعفا، ولئن أحس أنه ضعف لم يحترمه، ولم يكن للحسنة أثرها إطلاقا.

وهذه السماحة كذلك قاصرة على حالات الإساءة الشخصية، لا العدوان على العقيدة وفتنة المؤمنين عنها.

فأما في هذا فهو الدفع والمقاومة بكل صورة من صورها، أوالصبر حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا.

وهذه الدرجة، درجة دفع السيئة بالحسنة، والسماحة التي تستعلى على دفعات الغيظ والغضب، والتوازن الذي يعرف متى تكون السماحة ومتى يكون الدفع بالحسنى درجة عظيمة لا يلقاها كل إنسان، فهي في حاجة إلى الصبر وهي كذلك حظ موهوب يتفضل به الله سبحانه على عباده الذين يحاولون فيستحقون. أجل إنها درجة عالية إلى حد أن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وهو الذي لم يغضب لنفسه قط وإذا غضب لله لم يقم لغضبه أحد. قيل له، وقيل لكل داعية في شخصه الكريم: " **وإما ينزغنَّك من الشيطان نزغٌ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم**". فالغضب قد ينزغ، وقد يلقى في الروع قلة الصبر على الإساءة أو ضيق الصدر على السماحة.

فالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم حينئذ وقاية، تدفع محاولاته لاستغلال الغضب والنفاذ من ثغرته.

إنه طريق شاق، طريق السير في مسارب النفس ودروبها

وأشواكها وشعابها، حتى يبلغ الداعية منها موضع التوجيه ونقطة القياد، إنه طريق الصائمين حقا، الكاضمين الغيظ والعافين عن الناس... فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال في حديث أخرجه الشيخان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قال الله عز وجل : **" كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به. والصيام جُنة (وقاية) فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث (لا يفحش) ولا يصخب (لا يصيح) فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني صائم إني صائم. والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، للصائم فرحتان يفرحهما: إذا أفطر فرح بفطره وإذا لقى ربه فرح بصومه ".**

ومما يستفاد من هذا الحديث النبوي الشريف أن كظم الغيظ يحتاج إلى إرادة صلبة وعزيمة قوية وشخصية تتحكم في عواطفها ومشاعرها وانفعالاتها، فلا يستبد بها الغضب ولا يسيطر عليها الهوى الجامح، فيدفعها إلى الانتقام والتشفي أو إلى ارتكاب ملا يحسن بالرجل الحكيم الوقور. ولذلك قال سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" ليس الشديد بالصُّرَعَة، وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب "**. وفي رواية قال عليه الصلاة والسلام: **" ما تعدون الصُّرَعَة فيكم؟** قالوا الذي لا يصرعه الرجال. قال: ليس بذلك، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب ".

ولقد عنيت السنة المطهرة عناية واضحة بفضيلة كظم الغيظ الذي نتعلمه من الصيام وعلى أيدي الرجال، رجاله الصادقين، قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **من كظم غيظا وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، حتى يخيره من أي الحور العين شاء**".

وجاء فيه:

" **من كظم غيضا ولو شاء أن يمضيه لأمضاه، ملأ الله قلبه يوم القيامة رضا** ".

والغضب هو العامل المفسد لكظم الغيظ. فمن استجاب لداعي الغضب لم يستطع أن يكظم غيظه ولذلك يُروى أن رجلا رحل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له: علمني شيئا ولا تكثر علي لعلي أعيه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" **لا تغضب** "، فكرر الرجل قوله مرارا، وفي كل مرة يقول له النبي الكريم: " **لا تغضب** ". قال العلماء: إن الغضب فوران دم القلب لإرادة الانتقام، وهذا شيء فطري في الإنسان، ولا يستطيع التخلص منه بالكلية... ولكن المأمول من الرجل صاحب الأخلاق الفاضلة أن يتجنب أولا أسباب الغضب ما استطاع إلى ذلك سبيلا وأن لا يطيع الشيطان فيما يوسوس له من الاستجابة لداعي الغضب، فلا يتهور ولا يتجبر ولا يندفع. وهذا خلق من أخلاق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وخلق رجال الله الكاملين لأن الحلم شيمة من شيمهم الأساسية. والحليم لا يرتضي لنفسه التهور أو الاندفاع عند ثوران الغضب، نعم تراه يعفو عند المقدرة ويصفح عند الإساءة ويدفع بالتي هي أحسن، لا يجهل مع الجاهل، عبد من عباد

الرحمن الذين مـــــدحهم ربهم من عليـــائه بقوله: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ (الفرقان /63) هؤلاء هم في جدهم ووقارهم وقصدهم إلى ما يشغل نفوسهم من اهتمامات كبيرة، لا يلتفتون إلى حماقة الحمقى وسفه السفهاء، ولا يشغلون بالهم ووقتهم وجهدهم بالاشتباك مع السفهاء والحمقى في جدل أو عراك، يترفعون عن المهاترة مع المهاترين الطائشين... " **قالوا سلاما** "، لا عن ضعف ولكن عن ترفع ولا عن عجز إنما عن استعلاء، وعن صيانة للوقت والجهد أن ينفقا فيما لا يليق بالرجل الكريم المشغول عن المهاترة بما هو أهم وأكرم وأرفع.

وقد يشتبه الحلم بكظم الغيظ مع أن هناك فرقا بينهما كما أشار إلى ذلك الإمام أبو حامد الغزالي رضي الله عنه، فكظم الغيظ هو التحلم أي تكلف الحلم وهذا يحتاج إلى مجاهدة شديدة لما في الكظم من كتمان ومقاومة واحتمال، وأما الحلم فهو فضيلة أو خلق يصبح كالطبيعة، وهو دلالة كمال العقل واستيلائه على صاحبه، وانكسار قوة الغضب عنده، وخضوعها للعقل. ولكن هناك ارتباط بين الحلم وكظم الغيظ، لأن ابتداء التخلق بفضيلة الحلم يكون بالتحلم وهو كظم الغيظ ومن هنا ورد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **العلم بالتعلم والحلم بالتحلم** ". وكفى الحلم شرفا أن جعله عليه الصلاة والسلام أحد أسباب ثلاثة يبتغي بها الإنسان الرفعة عند الله تعالى وهي وصل من قطعك وإعطاء من حرمك والحلم عمن جهل عليك...

ومن روائع حلمه صلى الله عليه وسلم أن رجلا كافرا دنا من النبي صلى الله عليه وسلم وهو نائم ورفع الرجل السيف فوق النبي صلى الله عليه وسلم فانتبه عليه الصلاة والسلام فقال له الرجل: ما يمنعك مني؟ فقال الرسول الحليم بكل ثبات وطمأنينة: " الله " فارتعد الرجل وسقط السيف من يده فأخذه النبي وقال له: " من يمنعك مني؟؟" فقال الرجل في ضعف: " كن خير آخذ ".

فقال النبي الكريم: " قل أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ". فقال الرجل: لا، غير أني لا أقاتلك، ولا أكون معك، ولا أكـــون مع قوم يقاتلونك. فعفا النبي صلى الله عليه وسلم عنه وأطلق سبيله، فعاد الرجل إلى قومه يقول لهم: جئتكم من عند خير الناس.

ولقد عرف الحكماء منذ أقدم الأزمان مكانة الحلم وفضله، فقالوا فيه كثيرا وهذا لقمان الحكيم يقول: " ثلاث من كن فيه فقد أستكمل الإيمان: من إذا رضي لم يخرجه رضاه إلى الباطل، وإذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق، وإذا قدر لم يتناول ما ليس له".

ولعل أوضح ثمرات الحلم هو تجنب الظلم ولو قل، والتباعد عن الاستجابة لهوى النفس الغاضبة، ولقد روي عن خامس الراشدين الأمير الحاكم العادل سيدنا عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه أنهم جاؤوا إليه برجل قد أرتكب خطأ، وكان رضي الله عنه غاضبا، فقال له عمر: لولا أني غضبان لعاقبتك، وكان هذا الإمام إذا أراد معاقبة رجل حبسه ثلاثة أيام فإن أراد بعد ذلك أن يعاقبه عاقبه، كراهة أن يعجل عليه في أول غضبه. وليس الحلم رضى بالذل أو تقبلا للهوان،

وإنما هو ترفع عن الاستجابة للنزوة أو التأثر بالوسوسة أو مقابلة السوء بمثله إلا إذا كان دفاعا عن الحق وأهله فالغضب هنا فضيلة ممدوحة وخلق كريم وصفة أهل الكمال من الفعال. وإلى ذلك يشير الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله حين قال: " إنه لا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة، ولا مقابلة التجسس بالتجسس، ولا السب بالسب، وكذلك سائر المعاصي وإنما الجائز هو القصاص على ما ورد به الشرع ".

وفي حقل الطاعات يتسابق العاملون وما يفوز بالجوائز والبشارات إلا المخلصون المتقون الذين يتخرجون في كل عصر وفي كل مصر أفواجا من مدارس الصيام، صيام مراقبة الله وخشيته، صيام التضحية بالنفس والنفيس، صيام الذين ينفعون عيال الله بما أوتوا من نعم، صيام الذين يحبهم ربهم ويحبونه، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون فيه لومة لائم... قال تعالى عن هؤلاء الملوك الربانيين في سورة آل عمران: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦ ﴾ (133 – 136) هؤلاء هم السادات والسلاطين والأمراء وعلى حد

تعبير شيخنا سيدي أبي مدين الغوث رضي الله عنه وهؤلاء هم الملوك كما وصفهم شيخنا سيدي بن عليوى رحمه الله بقوله في لاميته:

فـــنحن ملـــوك الأرض مـــن حـــيث قـــربه
بذلـــــنا نفوســــا في حـــــبه ثم الأهــــلا

فهم ثابتون على البذل، ماضون على النهج، لا تغيرهم السراء ولا الضراء: السراء لا تبطرهم فتلهيهم، والضراء لا تفجرهم فتنسيهم، إنما هو الشعور بالواجب في كل حال، والتحرر من الشح والحرص ومراقبة الله وتقواه... وما يدفع النفس الشحيحة بطبعها، المحبة للمال بفطرتها، ما يدفع النفس إلى الإنفاق في كل حال إلا دافع أقوى من شهوة المال، وربقة الحرص، وثقلة الشح، دافع التقوى، ذلك الشعور اللطيف العميق، الذي تشف به الروح وتخلص، وتنطلق من القيود والأغلال.

ومن صفات هؤلاء الرجال أنهم الكاظمون الغيظ والعافون عن الناس... كذلك تعمل التقوى في هذا الحقل بنفس البواعث ونفس المؤثرات. فالغيظ كما قلنا انفعال بشري تصاحبه أو تلاحقه فورة في الدم، فهو إحدى دفعات التكوين البشري، وإحدى ضروراته، وما يغلبه الإنسان إلا بتلك الشفافية اللطيفة المنبعثة من إشراق التقوى، وإلا بتلك القوة الروحية المنبثقة من التطلع إلى أفق أعلى وأوسع من آفاق الذات والضرورات.

وكظم الغيظ هو المرحلة الأولى وهي وحدها لا تكفي فقد

يكظم الإنسان غيظه ليحقد ويضطغن، فيتحول الغيظ الفائر إلى إحنة غائرة، ويتحول الغضب الظاهر إلى حقد دفين، وإن الغيظ والغضب لأنظف وأطهر من الحقد والضغن، لذلك يستمر النص الشريف ليقرر النهاية الطليقة لذلك الغيظ الكظيم في نفوس المتقين، إنها العفو والسماحة والانطلاق... فالذين يجودون بالمال في السراء والضراء محسنون، والذين يجودون بالعفو والسماحة بعد الغيظ والكظم محسنون " **والله يحب المحسنين** ".

ومن حب الله للإحسان وللمحسنين، ينطلق حب الإحسان في قلوب أحبائه، وتنبثق الرغبة الدافعة في هذه القلوب، فليس هو مجرد التعبير الموحي لكنها الحقيقة كذلك وراء التعبير.

والجماعة التي يحبها الله وتحب الله والتي تشيع فيها السماحة واليسر والطلاقة من الإحَن والأضغان هي جماعة متضامنة وجماعة متآخية، وجماعة قوية. ومن ثم علاقة هذا التوجيه بالمعركة في الميدان والمعركة في الحياة على السواء في هذا السياق. وصفة أخرى لهؤلاء الرجال: يذكرون ربهم ويستغفرونه لأدنى هفوة " **ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون** ".

إن هذا الدين ليدرك ضعف هذا المخلوق البشري الذي تهبط به ثقلة الجسد أحيانا إلى درك الفاحشة، وتهيج به فورة اللحم والدم فينزو نزوة الحيوان في حمى الشهوة وتدفعه نزواته وشهواته وأطماعه ورغباته إلى المخالفة عن أمر الله في حمى الاندفاع، يدرك ضعفه هذا فلا يقسو عليه، ولا يبادر إلى طرده من رحمة الله حين يظلم نفسه،

حين يرتكب الفاحشة المعصية الكبيرة، وحسبه أن شعلة الإيمان ما تزال في روحه لم تنطفئ وأن نداوة الإيمان ما تزال في قلبه لم تجف، وأن صلته بالله ما تزال حية لم تذبل، وأنه يعرف أنه عبد يخطئ وأن له ربا يغفر.. وإذن فما يزال هذا المخلوق الضعيف الخاطئ المذنب بخير، إنه سائر في الدرب لم ينقطع به الطريق، مستمسك بالعروة الوثقى لم ينقطع به الحبل، فليعثر ما شاء له ضعفه أن يعثر. فهو واصل في النهاية مادامت الشعلة معه والحبل في يده، مادام يذكر الله ولا ينساه، ويستغفره ويقر بالعبودية له ولا يتبجح بمعصيته.

وهكذا يأخذ الإسلام هذا المخلوق البشري الضعيف في لحظات ضعفه فإنه يعلم أن فيه بجانب الضعف قوة، وبجانب الثقلة رفرفة، وبجانب النزوة الحيوانية أشواقا ربانية... فهو يعطف عليه في لحظة الضعف ليأخذ بيده إلى مراقي الصعود، مادام يذكر الله ولا ينساه ولا يصر على الخطيئة وهو يعلم أنها الخطيئة والرسول صلى الله عليه وسلم يقول في حديث أخرجه أبو داود والترمذي والبزار عن عثمان بن واقد رضي الله عنه: **" ما أصر من أستغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة "**.

والإسلام لا يدعو بهذا إلى الترخص، ولا يمجد العاثر الهابط ولا يهتف له بجمال المستنقع كما تهتف " الواقعية " إنما يقيل عثرة الضعف ليستجيش في النفس الإنسانية الرجاء، كما يستجيش فيها الحياء. فالمغفرة من الله تعالى، ومن يغفر الذنوب إلا الله جل علاه؟ تخجل ولا تطمع، وتثير الاستغفار ولا تثير الاستهتار... فأما الذين

يستهترون ويصرون فهم هنالك خارج الأسوار، موصدة في وجوههم الأبواب.

فالانتصار على الشح والانتصار على الغيظ والانتصار على الخطيئة والرجعة إلى الله وطلب مغفرته ورضاه كلها ضرورية للانتصار على الأعداء في المعركة، وهم إنما كانوا أعداء لأنهم يمثلون الشح والهوى والخطيئة والتبجح، وهم إنما كانوا أعداء لأنهم لا يخضعون ذواتهم وشهواتهم ونظام حياتهم لله ومنهجه وشريعته. ففي هذا تكون العداوة، وفي هذا تكون المعركة وفي هذا يكون الجهاد وليس هنالك أسباب أخرى يعادى فيها المسلم ويعارك ويجاهد، فهو إنما يعادي لله ويعارك لله ويجاهد لله جل علاه...

د – الصوم ربع الإيمان والصبر نصفه:

للصوم ثلاث مراتب: صوم العموم وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص. فأما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة. وأما صوم الخصوص فهو كف النظر واللسان واليد والرجل والسمع والبصر وسائر الجوارح عن الآثام. وأما صوم خصوص الخصوص: فهو صوم القلب عن الهمم الدنيئة، والأفكار المبعدة عن الله تعالى، وكفه عما سوى الله تعالى بالكلية.

ومن آداب صوم الخصوص غض البصر وحفظ اللسان عما يؤذي من كلام محرم أو مكروه أو ما لا يفيد، وحراسة باقي الجوارح، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في حديث أخرجه الإمام البخاري رحمه الله: **" من لم يدع قول الزور والعمل به فليس**

لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه ".

والصوم يسمى صبرا لما فيه من حبس النفس عن الطعام والشراب والشهوة، ويسمى رمضان شهر الصبر لأنه شهر الصوم "والمصابرة " هي مطاولة الغير في الصبر والتصبر: هو تكلف الصبر والاصطبار زيادة الاحتمال في مجال الصبر، قال تعالى في سورة مريم: ﴿ فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَـٰدَتِهِۦ ﴾، وفي سورة طه: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾.

والصبر فضيلة وخلق كريم تتعدد مجالاته، فهناك صبر على الطاعة أي استمساك بأدائها وصبر على المعصية أي حرص موصول على تجنبها، وصبر على الابتلاء، أي حسن احتمال له، فلا بد للمؤمن من صبر على أداء الواجب، وصبر عن الآثام والخطايا. وصبر بحفظ اللسان عن الخنا والفحش، وصبر بحرص اللسان على النطق بكلمة الحق حينما تجب، وصبر بصيانة القلب والعقل من خواطر السوء، وصبر بحفظ الجوارح والأعضاء من سوء الاستخدام، وصبر عند الشدائد والنوازل وصبر في مواطن الجهاد والنضال بالإقدام والثبات وعدم الفرار أو التولي يوم الزحف قال عز وجل في سورة الأنفال: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾ (15 - 16) والمعنى أنه إذا واجهتم الذين كفروا

" زحفا " أي متدانين متقاربين متواجهين، فلا تفروا منهم إلا أن يكون ذلك مكيدة حرب، حيث تختارون موقعا أحسن، أو تدبرون خطة أحكم، أو أن يكون ذلك انضماما إلى فئة أخرى من المسلمين، أو إلى قواعد المسلمين، لتعاودوا القتال، وأن من تولى وأعطى العدو دبره يوم الزحف فقد استحق ذلك العقاب: غضبا من الله ومأواه جهنم.

وقد وردت بعض الأقوال في اعتبار هذا الحكم خاصا بأهل بدر، أو بالقتال الذي يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم حاضره، ولكن الجمهور على أنه عامة وأن التولي يوم الزحف كبيرة من السبع الموبقات كما روى البخاري ومسلم في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **"اجتنبوا السبع الموبقات قيل يا رسول الله، "وما هن"؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ".**

وكثير من الناس يظنون أو يزعمون أن الصبر خلق سلبي، وأن معناه الاستسلام والرضى بالواقع والكف عن معالجة الأمور والاحتيال للخروج من الشدائد والأزمات وهذا فهم خاطئ ووهم فاسد، لأن الصبر كما يكون جهدا نفسيا للتأبى على المعاصي والابتعاد عن السيئات، يكون في كثير من الأحيان جهدا عمليا إيجابيا، فيه حركة، وفيه سعي، وفيه إنتاج وفيه تحمل للتبعات وتعرض لجلائل الأعمال ومواقف الأبطال، وقد فهم ذلك البصراء

من أعلام هذه الأمة المجيدة، حتى في المجال الصوفي الذي يقال عنه جهلا أو حسدا أنه يميل إلى السلبية والرضى بالواقع، ففي الأدب الصوفي جاء قولهم: " **الصبر تعويد النفس الهجوم على المكاره** "، وقولهم أيضا: " تجرع الصبر (احتمله) فإن قتلك قتلك شهيدا، وإن أحياك أحياك عزيزا ".

والصبر لا يناقض الإحساس بالألم لأنه أمر طبيعي وفطري في الإنسان ليس معيبا وإنما المعيب هو الخضوع لهذا الإحساس والرضا به، أو الاستجابة لداعيه الذي يغرق صاحبه في الجزع والهوان. فاللائق بصاحب الصبر الصائم الصادق أن يحاول كي يجعل صبره صبرا جميلا لا شكوى معه وإن كان هناك شعور بالألم...

والصبر كما يحدثنا عنه القرآن الكريم هو صفة الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وهو أيضا خلق أهل العزيمة القوية وأصحاب الإرادة الماضية الذين يعرفون الخير، ويعزمون عليه، ويمضون فيه لا ينثنون عنه مهما كلفهم من تعب أو مشقة، ومن هنا جعل القرآن الصبر من " **عزم الأمور** ". والعزم هو عقد القلب على إمضاء الأمر وهو أيضا المحافظة على ما يؤمر به الإنسان، وقيل: إن عزم الأمور هو محكم الأمور... قال جل علاه في سورة الشورى:

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ (43).

وقال في سورة آل عمران: ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ ﴾ (186).

ويعلق الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده على مفهوم الصبر قائلا: " الصبر هو تلقي المكروه بالاحتمال وكظم النفس عليه، مع الروية في دفعه ومقاومة ما يحدثه من الجزع، فهو مركب من أمرين: دفع الجزع ومحاولة طرده ثم مقاومة أثره حتى لا يغلب على النفس، وإنما يكون ذلك مع الإحساس بألم المكروه، فمن لا يحس لا يسمى صابرا، وإنما هو فاقد الإحساس، يسمى بليدا، وفرق بين الصبر والبلادة، فالصبر وسط بين الجزع والبلادة وما أحسن قرن التقوى بالصبر في هذه الموعظة، وهي أن يمتثل ما هدى الله إليه فعلا وتركا عن باعث القلب، وذلك من عزم الأمور أي التي يجب أن تعقد عليها العزيمة وتصح فيها النية وجوبا محتما لا ضعف فيه ".

والأحاديث النبوية في الصبر كثيرة: عن خباب بن الأرث رضي الله عنه قال في حديث أخرجه البخاري وأبو داود والنسائي:

شكونا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردة في ظل الكعبة فقلنا: ألا تنتصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: " **قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض، فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار، فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون** ".

وفي حديث أخرجه الشيخان عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: " كأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبيا من

الأنبياء عليهم السلام: " ضربه قومه فأدموه وهو يمسح الدم عن وجهه وهو يقول: " **اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون** " وروى الترمذي عن يحيى بن وثاب عن شيخ من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **المسلم الذي يخالط الناس ويصبر على آذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على آذاهم** ".

ولا بدّ من تربية النفوس بالبلاء، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد وبالجوع ونقص الأموال والانفس والثمرات... لا بدّ من هذا البلاء ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة كي تعز على نفوسهم بمقدار ما أدو في سبيلها من تكاليف. والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم التخلي عنها عند الصدمة الأولى. فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي الذي تعز به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعز في نفوس الآخرين. وكلما تألموا في سبيلها وكلما بذلوا من أجلها... كانت أعز عليهم وكانوا أضن بها. كذلك ولا يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها وصبرهم على بلائها... إنهم عندئذ سيقولون في أنفسهم: " لو لم يكن ما عند هؤلاء من العقيدة خيرا مما يبتلون به وأكبر ما قبلوا هذا البلاء ولا صبروا عليه ".. وعندئذ ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها، مقدرين لها، مندفعين إليها، وعندئذ يجيء نصر الله والفتح ويدخل الناس في دين الله أفواجا ولا بدّ من البلاء كذلك ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى. فالشدائد تستجيش مكنون القوى

ومذخور الطاقة، وتفتح في القلب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن في نفسه إلا تحت مطارق الشدائد.والقيم والموازين والتصورات ما كانت لتصح وتدق وتستقيم إلا في جو المحنة التي تزيل الغبش عن العيون، والران عن القلوب.

وأهم من هذا كله أو القاعدة لهذا كله... الالتجاء إلى الله وحده حين تهتز الأسناد كلها، وتتوارى الأوهام وهي شتى ويخلو القلب إلى الله وحده، لا يجد سندا إلا سنده. وفي هذه اللحظة فقط تنجلي الغشاوات وتنفتح البصيرة وينجلي الأفق على مد البصر... لا شيء إلا الله، لا قوة إلا قوته، لا حول إلا حوله، لا إرادة إلا إرادته، لا ملجأ منه إلا إليه.. وعندئذ تلتقي الروح بالحقيقة الواحدة التي يقوم عليها تصور صحيح. قال تعالى مادحا هؤلاء الرجال الصابرين: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (البقرة / 155 - 157).

إن الله يضع هذا كله في كفة ويضع في الكفة الأخرى أمرا واحدا... " صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ". إنه لا يعدهم هنا نصرا ولا يعدهم هنا تمكينا ولا يعدهم هنا مغانم ولا يعدهم هنا شيئا إلا صلوات الله ورحمة وشهادته.. لقد كان الله يعد هذه الجماعة لأمر أكبر من ذواتها وأكبر من حياتها. فكان من ثم

يجردها من كل غاية، ومن كل هدف ومن كل رغبة من الرغبات البشرية، حتى الرغبة في انتصار العقيدة، كان يجردها من كل شائبة تشوب التجرد المطلق له ولطاعته ولدعوته.. كان عليهم أن يمضوا في طريقهم لا يتطلعون إلى شيء إلا رضى الله وصلواته ورحمته وشهادته لهم بأنهم مهتدون.. هذا هو الهدف وهذه هي الغاية، غاية الصيام الخالص، وهذه هي الثمرة الحلوة التي تهفو إليها قلوبهم وحدها.. فأما ما يكتبه الله لهم بعد ذلك من النصر والتمكين في الأرض فليس لهم، إنما لدعوة الله التي يحملونها.

إن لهم في صلوات الله ورحمته وشهادته جزاء، جزاء على التضحية بالأموال والأنفس والثمرات، وجزاء على الخوف والجوع والشدة، وجزاء على القتل والشهادة.. إن الكفة ترجع بهذا العطاء فهو أثقل في الميزان من كل عطاء، أرجح من النصر وأرجح من التمكين وأرجح من شفاء غيظ الصدور.. لمثل هذا فليعمل العاملون ولمثل هذا فليتسابق المتسابقون.. قال شيخنا الإمام ابن عليوى رحمه الله مبينا طريقة الوصول إلى الحضرة القدسية:

فمن كان مريدا فهذي إرادة
يجعلها نصب عينية ثم يتخلى
من كل وصف مذموم يفهم من نفسه
وبعد تخليه بالضد يتحلى
يكون عبدا لله في كل حالة
آتيا بفرضه ومعتبرا النفلا

حـــتى يكـــون الحـــق سمعـــه وبـــصره

لـــسانا ونطقـــا والـــيدين كـــذا الرجلا

ولـــيمت قـــبل أن يمـــوت ويحـــي بـــربه

ومـــا كـــان بعـــد المـــوت ذاك هو النقلا

وليحاســـب نفـــسه بنفـــسه قـــبلها

ولـــيكن نائـــب الحـــق بنفـــسه أولى

ولـــير وجـــود الحـــق قـــبل وجـــوده

وبعـــد وجـــوده وحيـــثما تـــولى

كـــان الله وحـــده ولا شـــيء معـــه

وهـــو كمـــا كـــان آخـــرا وأولا

فهـــو واحـــد الـــذات لا شـــيء دونـــه

بـــاطـــن ظاهـــر، أزلي ولا زالا

والإنسان يمكنه أن يعرف طريقه إلى فضيلة الصبر باستعانته بالله في تعوده الصبر واستمساكه به، وهذا هو ما يعبر عنه أهل التصوف بقولهم: " الصبر بالله " ولعل القرآن الكريم قد أشار إلى ذلك حين قال في أواخر سورة النحل: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ...﴾ فهو سبحانه وتعالى الذي يهب عبده نعمة الصبر إذا عاناه الإنسان وحاول التزين به ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من يتصبر يصبره الله ". يعني من تكلف الصبر وتحمل تبعاته بالرغم من كراهية النفس له، فإن الله تعالى يهديه إلى

نفحات الصبر ويذيقه من رحيقه، فيجد في قلبه حلاوة ولذة ونشوة يفنى بها عن كل ما سوى الله..

ومن ازدان بالصبر حق الصبر واستكمله في نفسه عرف الطريق إلى مكانة الإمامة، فقد قال شيخنا الإمام ابن تيمية رحمه الله: بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين ثم تلا قوله تعالى في سورة السجدة:﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ . ولله در شيخنا ابن عليوى رحمه الله حين يصف هذا الإمام بقوله في لاميته المشهورة:

ومـن لم يغـن المـريد عـند نظـرته
فهـو في قـيد الجهـل يعـتمد الجهـلا

فـلا شـيخ إلا مـن يجـود بـسره
حـريص علـى المـريد مـن نفـسه أولى

ويـرفع عـنه حجـبا كانـت لقلـبه
منـيعة عـن الوصـول للمقـام الأعلى

ويـدخل حـضرة الله مـن بعـد فـصله
ويـرى ظـهـور الحـق أيـنـما تـولى

ويفـنى عـن العـالم طـرا بأسـره
فـلا قاصـرات الطـرف يهـوى ولا خلا

فهـذا تـالله شـيـخ لـيـس كمـثله
فهـو واحـد العـصر فـريد في الجمـلا

فهـو النجم الثاقب إن رمت قربه
وإن نفسك عزت فهو منها أغلى
كساه رسول الله ثوب خلافة
تحلى بذاك الثوب بعدما تخلى
وكفى هو الوارث لسر ربه
صفي نقي القلب بالحسن تحلى

هـ - الصيام يعلمنا حفظ الصحة ويربينا على القناعة:

لما كان اعتدال البدن وصحته وبقاؤه إنما هو بواسطة الرطوبة المقاومة للحرارة، فالرطوبة مادة، والحرارة تنضجها، وتدفع فضلاتها وتصلحها وتلطفها، وإلا أفسدت البدن ولم يمكن قيامه، وكذلك الرطوبة هي غذاء الحرارة، فلولا الرطوبة، لأحرقت البدن وأيبسته وأفسدته، فقوام كل واحدة منهما بصاحبتها وقوام البدن بهما جميعا، وكل منهما مادة للأخرى، فالحرارة مادة للرطوبة تحفظها وتمنعها من الفساد والاستحالة، والرطوبة مادة للحرارة تغذوها وتحملها، ومتى مالت إحداهما إلى الزيادة على الأخرى، حصل لمزاج البدن الانحراف بحسب ذلك، فالحرارة دائما تحلل الرطوبة، فيحتاج البدن إلى ما به يخلف عليه ما حللته الحرارة، لضرورة بقائه، وهو الطعام والشراب، ومتى زاد على مقدار التحلل ضعفت الحرارة عن تحليل فضلاته، فاستحالت مواد رديئة، فعاثت في البدن، وأفسدت،

فحصلت الأمراض المتنوعة بحسب تنوع مـــوادها وقبول الأعضـــاء واستعدادهـــا، وهذا كله مستفـــاد من قوله تعالى في ســـورة الأعراف (31): ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ . فأرشد سبحانه عباده إلى إدخال ما يقيم البدن من الطعام والشراب عوض ما تحلل منه، وأن يكون بقدر ما ينتفع به البدن في الكمية والكيفية، فمتى جاوز ذلك كان إسرافا، وكلاهما مانع من الصحة جالب للمرض، أعني عدم الأكل والشرب ضار والإسراف فيهما أضر..

فحفظ الصحة كله في هاتين الكلمتين الإلهيتين، ولا ريب أن البدن دائما في التحلل والاستخلاف، وكلما كثر التحلل ضعفت الحرارة لفناء مادتها، فإن كثرة التحلل تفني الرطوبة، وهي مادة الحرارة، وإذا ضعفت الحرارة ضعف الهضم، ولا يزال كذلك حتى تفنى الرطوبة، وتنطفئ الحرارة جملة فيستكمل العبد الأجل الذي كتب الله له أن يصل إليه.

فغاية علاج الإنسان لنفسه ولغيره حراسة البدن إلى أن يصل إلى هذه الحالة، لا أنه يستلزم بقاء الحرارة والرطوبة اللتين بقاء الشباب والصحة والقوة بهما، فإن هذا لم يحصل لبشر في هذه الدار، وإنما غاية الطبيب أن يحمي الرطوبة عن مفسداتها من العفونة وغيرها، ويحمي الحرارة عن مضعفاتها ويعدل بينهما بالعدل في التدبير الذي به قام بدن الإنسان، كما أن به قامت السماوات والأرض وسائر المخلوقات. إنما قوامها بالعدل. ومن تأمل هدى

الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وجده أفضل هدى على الإطلاق يمكن حفظ الصحة به، فإن حفظها موقوف على حسن تدبير المطعم والمشرب، والملبس والمسكن، والهواء والنوم، واليقظة، والحركة والسكون والمنكح، والاستفراغ والاحتباس، فإذا حصلت هذه على الوجه المعتدل الموافق الملائم للبدن والبلد والسن والعادة، كان أقرب إلى داوم الصحة أو غلبتها إلى انقضاء الأجل.

ولما كانت الصحة والعافية من أجَل نعم الله على عبده وأجزل عطاياه وأوفر منحه، بل العافية المطلقة أجل نعم الله على الإطلاق، فحقيق لمن رزق حظا من التوفيق مراعاتها وحفظها وحمايتها عما يضادها. وقد روى الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ** ".

وفي الترمذي وغيره من حديث عبيد الله بن محصن الأنصاري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "**من أصبح معافى في جسده**، آمنا في سربه، **عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا** ". وفي الترمذي أيضا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " أول ما يسأل العبد يوم القيامة عن النعيم أن يقال له: ألم نصح لك جسمك ونروّك من الماء البارد؟".

ومن هاهنا قال من قال من السلف الصالح في قوله تعالى في آخر سورة التكاثر: ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨ ﴾ [التكاثر: 8].

قال عن الصحة. " **لتسألن** " عن كل النعيم بكل أنواعه

وألوانه وأذواقه، من أين نلتموه وفيم أنفقتموه أمن طاعة وفي طاعة؟ أمن معصية وفي معصية؟ أمن حلال وفي حلال؟ أمن حرام وفي حرام؟ هل شكرتم؟ هل أديتم؟ هل شاركتم؟ هل استأثرتم؟نعم "ولتسألن"عما كنتم تتكاثرون به وتتفاخرون من جاه وسلطان وأموال وبنين !...وفي مسند الإمام أحمد رحمه الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للعباس رضي الله عنه: " **يا عباس يا عم رسول الله. سل الله العافية في الدنيا والآخرة** ".

وفيه عن سيدنا أبي بكر الصديق رضوان الله عليه قال: " **سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " سلوا الله اليقين والمعافاة فما أوتي أحد بعد اليقين خير من العافية** ". فجمع بين عافيتي الدين والدنيا ولا يتم صلاح العبد في الدارين إلا باليقين والعافية فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة والمعافاة تدفع عنه أمراض الدنيا في قلبه وبدنه".

وعن علاقة الصوم بصحة الأبدان والنفوس يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **الصيام جنة** " و" **صوموا تصحوا** ". مفسرا قوله تعالى: ﴿ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 184]. ويؤكد عن هذه العلاقة الفطرية بقوله: "**الأزم دواء والمعدة بيت الداء وعودوا كل بدن ما اعتاد** ". وقوله أيضا:

" **نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا فلا نشبع** ".

والأزم هو الامتناع عن كل ما يضر. ومن هنا جاء الصيام عبادة فيها شفاء للأبدان وللأرواح والنفوس. ففي الصيام راحة للمعدة من عناء

العمل ليل نهار طوال العام.. وشهر في العام يعادل يوما كل أثني عشر يوما، وهذه الراحة من عناء العمل المستمر لازمة وضرورية.

ولقد وجد الحكماء وأرباب الاختصاص أن عدد مرضى النزلات المعوية بالذات ومرض القولون يقلون في رمضان عن غيره من الشهور، كما أن فاعلية العقاقير تزيد في شهر رمضان عنه في الشهور الأخرى كذلك، لأن المريض عادة ما يناقض علاجه الطبي عندما يأكل الممنوعات ويعرض عن المسموحات، ولأن أحب شيء إلى الإنسان ما منع " وكل ممنوع متبوع "... لكن في رمضان فإن الصيام عن الممنوع والمسموح يعطي فرصة أكبر لمرض المعي الدقيق والغليظ بالشفاء العاجل: " قاتل الله الشره " فإن التخمة تقلل من فعالية العقاقير وتعرقل الشفاء وتؤخر المعافاة.

يقول الدكتور شخاشيري في حكمة الصوم: " أعلم أن انتفاعك من الطعام القليل الذي تأكله في انتظام يزيد على انتفاعك من الطعام الكثير الذي تأكله في غير انتظام ومن غير بطء في المواعيد ".

وحدد الدكتور شخاشيري فوائد الصيام في عدة نواح:

- علاج اضطرابات الهضم واضطرابات الأمعاء وبالذات المزمنة منها.
- كعلاج لزيادة الوزن.
- إقلال السكر في الدم والعمل على إخفائه من البول.
- التهاب الكلى الحاد المصحوب بتورم وارتشاح تستفيد كثيرا من الصيام.

- أمراض القلب المصحوبة بتورم في القدمين والساقين وتضخم حجرات القلب.

- التهاب المفاصل الروماتزمية.

وأعقب على المآثر والفوائد الناتجة عن الصيام العظيمة الشأن موضحا أن إبعاد الثقة بين النفس ونزواتها يستفيد منه الجسم كثيرا وتنطلق الروح إلى سماء السعادة والارتقاء.

في خلاصة هذا الفصل نقول: إن الصوم عبادة روحية وبدنية، يعلم الأمانة ومراقبة الله تعالى في السر والعلن، إذ لا رقيب على الصائم في امتناعه عن الطيبات إلا الله وحده. والصوم يقوي الإرادة ويشحذ العزيمة ويعلم الصبر ويساعد على صفاء الذهن واتقاد الفكر، وإلهام الآراء الثاقبة إذا تخطى الصائم مرحلة الاسترخاء، وتناسى ما قد يطرأ له من عوارض الارتخاء والفتور أحيانا.

قال لقمان الحكيم لأبنه: " يابني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة وخرست الحكمة وقعدت الأعضاء عن العبادة ".

والصوم يعلم النظام والانضباط، لأنه يجبر الصائم على تناول الطعام والشراب في وقت محدد وموعد معين، وعلى الإمساك في وقت يحرم تجاوزه. والصوم يشعر بوحدة المسلمين الحسية في المشارق والمغارب، فهم جميعا يصومون ويفطرون في وقت واحد، لأن ربهم واحد سبحانه وعبادتهم واحدة...

وينمي الصوم في الإنسان عاطفة الرحمة والأخوة، والشعور برابطة التضامن والتعاون التي تربط المسلمين فيما

بينهم، فيدفعه إحساسه بالجوع والحاجة مثلا إلى صلة الآخرين، والمساهمة في القضاء على غائلة الفقر والجوع والمرض، فتتقوى أواصر الروابط الاجتماعية بين الناس، ويتعاون الكل في معالجة الحالات المرضية في المجتمع.

والصوم فعلا يجدد حياة الإنسان بتجدد الخلايا وطرح ما شاخ منها، وإراحة المعدة وجهاز الهضم، وحمية للجسد، بالتخلص من الفضلات المترسبة والأطعمة غير المهضومة، والعفونات أوالرطوبات التي تتركها الأطعمة والأشربة، قال رسول الله صلى عليه وسلم في حديث رواه ابن السني وأبو نعيم عن أبي هريرة رضي الله عنه:

" صوموا تصحوا ". وقال طبيب العرب الحرث بن كلدة: "المعدة بيت الداء، والحمية رأس كل دواء".

والصوم جهاد للنفس، وتخليصها مما علق بها من شوائب الدنيا وآثامها، وكسر لحدة الشهوة والأهواء فيها، وتهذيبها وضبطها في طعامها وشرابها بدليل قول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في حديث رواه الجماعة عن ابن مسعود رضي الله عنه: " يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء ". والصوم إذا هو استعلاء على الضرورات وصبر على الحاجات الأولية للحياة وتقرير للإرادة وتوكيد لغلبة الإنسان في هذا الكائن البشري على الحيوان.

2- فضل رمضان وليلة القدر:

رمضان سيد الشهور، فيه بدأ نزول القرآن الكريم على سيدنا محمد رسول الله المبعوث رحمة للعالمين، وهو شهر الطاعة والقربة والبر والإحسان، وشهر المغفرة والرحمة والرضوان، فيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وبه عون المؤمن على أمر دينه وطلب إصلاح دنياه، وهو موسم تكثر فيه مناسبة إجابة الدعاء، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ (186)

أ - دعوة الصائم مستجابة:

إن الرشد الذي ينشئه الإيمان وتنشئه الاستجابة لله هو الرشد. فالمنهج الإلهي الذي اختاره الله للبشر هو المنهج الوحيد الراشد القاصد، وما عداه جاهلية وسفه لا يرضاه راشد ولا ينتهي إلى رشاد. واستجابة الله للعباد مرجوة حين يستجيبون له وهم يرشدون وعليهم أن يدعوه ولا يستعجلوه فهو يقدر الاستجابة في وقتها بتقديره الحكيم، سبحانه وتعالى.

أخرج أبوداود والترمذي وابن ماجة من حديث ابن ميمون بإسناده عن سلمان الفارسي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " **إن الله تعالى يستحي أن يبسط العبد إليه يديه يسأله خيرا**

فيردهما خائبتين ". وأخرج الترمذي عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي بإسناده عن ابن ثوبان: ورواه عبد الله بن الإمام أحمد بإسناده عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " **ما على الأرض من رجل مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة إلا آتاه الله إياها أو كف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم**". وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " **يستجاب لأحدكم ما لم يعجل**. يقول: دعوت فلم يستجب لي " وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " **لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل**، قيل: يا رسول الله وما الاستعجال؟ قال: يقول: " **قد دعوت وقد دعوت فلم أرى يستجاب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء** ".

والصائم أقرب الدعاة استجابة كما روى الإمام أبو داود والطيالسي في مسنده بإسناده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " **للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة** ". فكان عبد الله بن عمر إذا أفطر دعا أهله وولده ودعا. وروى ابن ماجة في سننه بإسناده عن عبد الله بن عمر كذلك قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: " **إن للصائم عند فطره دعوة ما ترد**". وفي مسند الإمام أحمد وسنن الترمذي والنسائي وأبن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **ثلاثة لا ترد دعوتهم**: " **الإمام العادل والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة، وتفتح لها**

أبواب السماء" ويقول: " بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين ".

ومن أهم آداب الدعاء كما جاء عن الإمام أبي حامد الغزالي في:

" الإحياء ": رفع اليدين حتى يرى بياض إبطه. وغاية الرفع إلى حذو منكبيه إلا إذا اشتد الأمر. ثم مسح الوجه بهما إتباعا للسنة المطهرة. روى أبو داود بإسناد حسن عن مالك بن يسار مرفوعا:

"إذا سألتم الله فاسألوه ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورها".

ثم يبدأ الدعاء بالحمد لله والثناء عليه لقوله صلى الله عليه وسلم في حديث أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وصححه: " إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه والثناء عليه، ثم يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يدعو بما شاء ". والأفضل تحري مجامع الحمد مثل: " الحمد لله حمدا يوافي نعمه ويكافئ مزيده... يا ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك ".

ويختم دعاءه بالحمد لله لقوله تعالى في سورة يونس عليه السلام: ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (10) كما يختم دعائه بالآية الكريمة من أواخر سورة الصافات: ﴿ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

وأخرج البخاري رحمة الله عليه وعلى سائر أئمة الإسلام

أجمعين، عن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه قال: من أحب أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن أخر كلامه إذا قام من مجلسه: " **سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين** ".

ويصلي على النبي صلى الله عليه وسلم أول الدعاء وآخره، لخبر جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **لا تجعلوني كقدح الراكب فإن الراكب يملأ قدحه ثم يضعه ويرفع متاعه، فإن احتاج إلى شراب شرب، أو لوضوء توضأ، وإلا أهرقه، ولكن أجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره** " (أخرجه ابن الأثير).

ويستقبل الداعي غير الإمام القبلة، لأن خير المجالس ما استقبل به القبلة، ويكره للإمام استقبالها، بل يستقبل المأمومين للحديث الذي ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان ينحرف إليهم إذا سلم.

ويلح في الدعاء مع الخشية لقوله صلى الله عليه وسلم في حديث أخرجه الترمذي وابن عدى والبيهقي في شعب الإيمان عن سيدتنا عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: " **إن الله يحب الملحين في الدعاء** ". ولقوله عليه الصلاة والسلام في حديث أخرجه الترمذي أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه: " **أدعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله عز وجل لا يستجيب دعاء من قلب غافل** ".

ويكرر الدعاء ثلاثا لأنه نوع من الإلحاح.. روى مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: كان عليه السلام إذا دعا دعا ثلاثا، وإذا سأل سأل ثلاثا ".

ويكون متطهرا ويقدم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار. والدعاء سرا أفضل منه جهرا لقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ۝ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ ﴾ (الأعراف / 55- 56). لأنه أقرب إلى الإخلاص..

إن إخلاص الدين لله وتقرير عبودية البشر له، إن هي إلا فرع من إسلام الوجود كله. وعبودية الوجود كله لسلطانه.. وهذا هو الإيحاء الذي يستهدف المنهج القرآني تقريره وتعميقه في القلب البشري.. وأيما قلب أو عقل يتجه بوعي ويقظة إلى هذا الكون ونواميسه المستسرّة، وظواهره الناطقة بتلك النواميس المستسرّة.. لا أن يستشعر تأثيرا لا يرد سلطانه، ولا بدّ أن يهتز من أعماقه بالشعور القاهر بوجود المدبر المقدر صاحب الخلق والأمر جل علاه.. وهذه هي الخطوة الأولى لدفع هذا القلب إلى الاستجابة لداعي الله، والاستسلام لسلطانه الذي يستسلم له هذا الوجود كله ولا يتخطاه.

ومن ثم يتخذ المنهج القرآني من هذا الوجود مجاله لتجلية حقيقة الألوهية، وتعبيد البشر لربهم وحده، وإشعار قلوبهم وكيانهم كله حقيقة العبودية، وتذوق طعمها الحقيقي في استسلام الواثق

المطمئن، الذي يستشعر أن كل ما حوله وكل مَن حوله مِن خلق الله مخلوق لله، يتجاوب وإياه.

إنه ليس البرهان العقلي وحده هو الذي يستهدفه المنهج القرآني باستعراض عبودية الوجود لله تعالى وتسخيره بأمره، واستسلام هذا الوجود في طواعية ويُسر ودقة وعمق لأمره تعالى وحكمه، إنما هو مذاق آخر وراء البرهان العقلي ومع هذا البرهان العقلي مذاق المشاركة مع الوجود والتجاوب ومذاق الطمأنينية واليسر والانسياق مع موكب الإيمان الشامل.

ولله در سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه حين قال في هذا الشأن: " إن المؤمن إذا انتقل إلى رحمة الله بكى عليه موضعان موضع الأرض وموضع في السماء. فالذي في الأرض هو مصلاه والذي في السماء هو موضع صعود عملي ".

وبالعكس فإن القرآن الكريم يقول في سورة دخان عن الكفرة فرعون وقومه: " **فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين...**"، ومن هنا ندرك جليا أن الذي يحي بمنهاج ربه يدافع عن الحق وينفع الخلق، يحي في معية الله والكائنات مسخرات له وفي خدمته لأن الكون بنفسه في عبادة مولاه، وفي خدمة لمن يطع مولاه جل في علاه وفي الحديث القدسي أيضا عن رب العـــزة جل وعز قال: " **يا دنيا أخدمي من خدمني واستخدمي من خدمك...**".

وكيف لا وكل ما في السماوات والأرض ومن فيهما يسجد لخالقه سبحانه وتعالى وكيف لا والملك والملاكوت كلاهما يسبح الله

تعالى بما لا نفقه نحن البشر قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (الإسراء /44). ولصاحب الظلال سيد قطب رحمة الله عليه تعليق لطيف في هذا حين يقول: " أجل لا تفقهونه لأنكم محجوبون بصفات الطين ولأنكم لا تتسمعوا بقلوبكم ولم توجِّهوها إلى أسرار الوجود الخفية وإلى النواميس التي تنجذب إليها كل ذرة في هذا الكون الكبير وتتوجه بها إلى خالق النواميس ومدبر هذا الكون الكبير".

وحين تشف الروح وتصفو فتتسمع لكل متحرك أو ساكن وهو ينبض بالروح ويتوجه بالتسبيح، فإنها تتهيأ للاتصال بالملأ الأعلى، وتدرك من أسرار هذا الوجود ما لا يدركه الغافلون، الذين تحول صفاقة الطين بين قلوبهم وبين الحياة الخفية السارية في ضمير هذا الوجود، النابضة في كل متحرك وساكن، وفي كل شيء في هذا الوجود.

وذكر الحلم هنا والغفران بمناسبة ما يبدوا من البشر من تقصير في ظل هذا الموكب الكوني المسبح بحمد الله بينما البشر في جحود وفيهم من يشرك بالله، ومن ينسب له البنات ومن يغفل عن حمده وتسبيحه، والبشر أولى من كل شيء في هذا الكون بالتسبيح والتحميد والمعرفة والتوحيد، ولولا حلم الله وغفرانه لأخذ البشر أخذ عزيز مقتدر، ولكنه يمهلهم ويذكرهم ويعظهم ويزجرهم " إنه

كان حليما غفورا ".

وبقدر ما يتجلى الله تعالى على خلقه بالمغفرة والتوبة حيث شرع التوبة بفضله وهدى من يشاء إليها بفضله ثم قبلها عنهم ومنهم بفضله، بقدر ما تتجلى صفات جماله سبحانه على خلقه وتشفع لهم عند صفات جلاله تعالى، ينعم البشر بحلم العفو الكريم حيث لا يكلفهم ما لا يطيقون فلو أسمعهم تسبيح مخلوقاته وفقهوه لتعطلت مصالحهم بالكلية ولما استطاعوا العيش لحظة إنه كان حليما غفورا ولما استطاع الإنسان أن يقوم بخلافة الله في الأرض البتة.

إن مذاق العبودية الراضية، التي لا يسوقها القسر، ولا يحركها القهر، إنما تحركها قبل الأمر والتكليف عاطفة الود والطمأنينة والتناسق مع الوجود كله. فلا تفكر في التهرب من الأمر، ولا التفلت من القهر، لأنها إنما تلبي حاجتها الفطرية في الاستسلام الجميل المريح.. الاستسلام لله رب العالمين الذي يرفع الجباه عن الدينونة لغيره أو العبودية لسواه..

ويعمم بالدعاء لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لسيدنا علي: " يا علي عمم ". ويكون دعاؤه بتأدب في هيئته وألفاظه، وخشوع وخضوع، وعزم ورغبة وحضور قلب ورجاء، و شرط قبول الدعاء الإخلاص وتحري الطيبات من الرزق.

ويتوسل بأسماء الله تعالى وصفاته وتوحيده، وبجاه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إذ هو أعظم الوسائل إلى الله عز وجل وبصحابته الكرام وآله الأبرار والرجال الأخيار عامة بلا استثناء، وبما

قدمه من أعمال صالحة لوجه الله الكريم إقتداءاً بأصحاب الغار الثلاثة الذين سد عليهم باب الغار وما نجاهم الله من وقعتهم تلك إلا أنهم توسلوا إليه سبحانه بأعمـــال طيبة قدموها مخلصين حنفاء غير مشركين به.

وينبغي أن يقدم بين دعائه صدقة ويتحرى أوقات الإجابة وهي: الثلث الأخير من الليل، وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبة، وعند صعود الإمام المنبر يوم الجمعة حتى تنقضي الصلاة، وآخر ساعة بعد العصر من يوم الجمعة ويوم عرفة ويوم الجمعة وعند نزول الغيث وعند زحف الصفوف في سبيل الله وحالة السجود، ولا بأس أن يخص نفسه بالدعاء لحديث أبي بكرة وأم سلمة وسعد بن أبي وقاص إذ أولها: " **اللهم إني أعوذ بك وأسألك** ". فهو يخص نفسه الكريمة صلى الله عليه وسلم، ولحديث رواه الحاكم عن سيدتنا عائشة رضي الله عنها قالت: " **أفضل الدعاء دعاء المرء لنفسه** ".

ويستحب أن يخفف الدعاء لأنه صلى الله عليه وسلم " **نهى عن الإفراط في الدعاء** "، والإفراط يشمل كثرة الأسئلة.

ويدعو بدعاء مأثور، إما من القرآن أو السنة المطهرة أو عن الصحابة أو عن التابعين أو الأئمة المشهورين. من ذلك ما روته سيدتنا أم سلمة بنت أبي أمية، أم المؤمنين رضي الله عنها وعن سائر أزواج رسول الله أجمعين، أن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم كان يقول إذا صلى الصبح حين يسلم: " **اللهم إني أسألك علما نافعا ورزقا طيبا وعملا متقبلا** " رواه أحمد وابن ماجة وابن أبي شيبة.

ومن الأدعية المأثورة الجامعة: " اللهم إني أسألك موجبات رحمتك، وعزائم مغفرتك، والسلامة من كل أثم والغنيمة من كل بر، والفوز بالجنة، والنجاة من النار. اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل وأعوذ بك من الجبن والبخل والفشل، ومن غلبة الدين وقهر الرجال. اللهم أني أعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء، وسوء القضاء وشماتة الأعداء وعضال الداء ".

والسبيل إلى القبول ونيل السعادة في الدارين الإنفاق من الحلال، حلال لا شبهة فيه لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبا كما جاء في الأربعين النووية عن سيد البرية: عن أبي هريـــرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا.

وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا ﴾. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ ﴾ (البقرة/ 172).

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يده إلى السماء يارب يارب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام، فأنى يستجاب لذلك.رواه مسلم.

قال وهب بن منبه: " بلغني أن موسى عليه السلام مر برجل قائم يدعو ويتضرع طويلا وهو ينظر إليه فقال موسى: " يارب أما استجبت لعبدك ". فأوحى الله تعالى إليه: " ياموسى انه لو بكى حتى

تلفت نفسه ورفع يده حتى بلغ عنان السماء ما أستجبت له ". قال: " يا رب، لم ذلك؟ " قال: " لأن في بطنه الحرام وعلى ظهره الحرام وفي بيته الحرام ". ومر الشيخ الزاهد إبراهيم بن أدهم رحمه الله بسوق البصرة (بالعراق) فاجتمع الناس إليه وقالوا له يا أبا اسحاق: " مالنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ " قال رضي الله عنه:

" لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء: الأول، عرفتم الله فلم تؤدوا حقه، الثاني زعمتم أنكم تحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركتم سنته، والثالث، قرأتم القرآن فلم تعملوا به، والرابع أكلتم نعم الله ولم تؤدوا شكرها، والخامس قلتم إن الشيطان عدو لكم ووافقتموه ولم تخالفوه، والسادس، قلتم أن الجنة حق ولم تعملوا لها، والسابع، قلتم أن النار حق ولم تهربوا منها، والثامن قلتم أن الموت حق ولم تستعدوا له، والتاسع انتبهتم من النوم فاشتغلتم بعيوب الناس ونسيتم عيوبكم، والعاشر دفنتم موتاكم ولم تعتبروا بهم ".

وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **" إن لله تعالى ملك موكلا بمن يقول: يا أرحم الراحمين. فمن قالها ثلاثا، قال له الملك: " إن أرحم الراحمين قد أقبل عليك فاسأل "**. وعن الإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله قال: فإن قيل فما فائدة الدعاء مع أن القضاء لا مردله، فأعلم أن من جملة القضاء رد البلاء بالدعاء، فالدعاء سبب لرد البلاء ووجود الرحمة كما أن الترس سبب لدفع السلاح، والماء سبب لخروج النبات من

الأرض، وكما أن الترس يدفع السهم فيتدافعان فكذلك الدعاء، وقد قيل:

سبحان من لا يخيب من قصده
من قصد الله صادقا وجده
قد شمل الخلق فضل نعمته
كل إلى فضله يمد يده

ومن فضائل الدعاء أنه ينفع الحي والميت. وإلى هذا يشير الإمام ابراهيم اللقاني رحمه الله في جوهرته ويقول:

وعندنا أن الدعاء ينفع
كما من القرآن وعد يسمع

والمراد بذلك والله أعلم أن الميت هو كذلك ينتفع بهدية الحي له من ذكر واستغفار وصلاة وصوم وحج وقراءة قرآن وكل أعمال البر على الراجح من قول الجمهور.

قال الفاضل محمد بن خزيمة رحمه الله: " لما مات أحمد بن حنبل رحمه الله رأيته في المنام وهو يتبختر في الجنة فقلت أي مشية هذه فقال: " هذه مشية الخدام إلى دار السلام ". فقلت " ما فعل الله بك؟؟ فقال: " غفر لي وتوجني وألبسني نعلين من ذهب وقال لي: " ياأحمد هذا بقولك القرآن كلامي " ثم قال: " يا أحمد أدعني بتلك الدعوات التي بلغتك عن سفيان الثوري وكنت تدعو بها في دار الدنيا" فقلت: " يارب كل شيء بقدرتك على كل شيء، إغفر لي كل

شيء ولا تسألني عن شيء". والأحاديث في فضل الدعاء كثيرة شهيرة.

ب – فضل رمضان على سائر الشهور:

قد ورد في السنة المطهرة ما يدل على فضل رمضان وفضل الصوم فيه.

ومن ذلك ما يأتي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **رجب شهر الله وشعبان شهري ورمضان شهر أمتي** ". وقال أيضا عليه الصلاة والسلام في حديث رواه الطبراني في الكبير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: " **سيد الشهور شهر رمضان وسيد الأيام يوم الجمعة** ". وأخرج الطبراني في الكبير وابن خزيمة في صحيحه والبيهقي من طريقه عن أبي مسعود الغفاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " **لو يعلم العباد ما في شهر رمضان لتمنى العباد أن يكون شهر رمضان سنة** ". وروى الطبراني عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوما وقد حضر رمضان: " **أتاكم رمضان شهر بركة، يغشاكم الله فيه، فينزل الرحمة، ويحط الخطايا ويستجيب فيه الدعاء، ينظر الله تعالى إلى تنافسكم فيه، ويباهي بكم ملائكته، فأروا الله من أنفسكم خيرا، فإن الشقي من حرم فيه رحمة الله عز وجل** ".

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " **إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصفدت الشياطين** ". وروى مسلم عن أبي

هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " الصلوات الخمس والجمعة الى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات إذا اجتنبت الكبائر ". والمراد بشهر تصفد فيه الشياطين، هو شهر يجد فيه المؤمن غالبا ذوقا وحلاوة في عبادته وسائر قرباته وإنفاقه، وذلك بفضل توفيق الله تعالى إياه وسهولة الطاعة على النفس التي تنتقل من كونها أمارة بالسوء إلى لوامة ثم إن شاء ربها إلى راضية مرضية.. فياليت كل أيام حياتنا رمضان.. ففيه تصفد الشياطين وفيه تحارب على أيدي الصائمين الصادقين وفيه ينبذ كل شرك لله رب العالمين.. قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ (121 - 122).

ولقد كان أكثر من في الأرض كما هو الحال اليوم بالضبط، من أهل الجاهلية، لم يكونوا يجعلون الله هو الحكم في أمرهم كله، ولم يكونوا يجعلون شريعة الله التي في كتابه هي قانونهم كله، ولم يكونوا يستمدون تصوراتهم وأفكارهم، ومناهج تفكيرهم ومناهج حياتهم من هدى الله وتوجيهه، ومن ثم كانوا، كما هو الحال اليوم، في ضلالة الجاهلية، لا يملكون أن يشيروا برأي ولا بقول ولا بحكم يستند إلى الحق ويستمد منه ولا يقودون من يطيعهم ويتبعهم إلا الى الضلال المبين، كانوا كما هم اليوم، يتركون العلم المستيقن ويتبعون

الظن والحدس، والظن لا يغني من الحق شيئا، والظن والحدس لا ينتهيان إلا إلى الضلال.. وكذلك حذر الله رسوله من طاعتهم وإتباعهم كي لا يضلوا عن سبيل الله... فحرم علينا الذبائح التي تقرب للأوثان، وتلك التي تنحر ولم يذكر اسم الله عليها... ويأمرنا وجوبا أن نأكل مما ذكر اسم الله عليه... والذكر يقرر الوجهة ويحدد الاتجاه ويعلق إيمان الناس بالطاعة هذا الأمر الصادر اليهم من الله تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ ﴾.
وما للمسلمين اليوم بلا استثناء يتغذون بما يفرزه الغرب من فضلات ويتلذذون بها دون أن يذكروا عليها إسم الله ويدخلوا هذه التطورات في قوالب الشرع الحنيف؟؟؟ فبالعلم النافع مرحبا ولكن بالقاذورات اللامعة، وبفضلات حضارتهم الزائفة، فلا وألف لا. ولكن كيف الوصول إلى التمييز بين الحق والباطل وبين الطيب والخبيث؟.

إن النص القرآني لقاطع في أن طاعة المسلم لأحد من البشر في جزئية من جزئيات التشريع التي لا تستمد من شريعة الله، ولا تعتمد على الاعتراف له وحده بالحاكمية، إن طاعة المسلم في هذه الجزئية تخرجه من الإسلام لله، إلى الشرك بالله، فهو مشرك وإن كان في الأصل مسلما. لأنه لا مفاوضة في الواجب والشرف، ولا شرف أسمى من شرف الإسلام ولا واجب أغلى من واجب تقديس عقيدته ومبادئه. وحين ننظر إلى وجه الأرض اليوم في ضوء هذه التقريرات الحاسمة، فإننا نرى الجاهلية والشرك، ولا شيء غير الجاهلية والشرك إلا من عصم الله، عصمه بتوفيقه إياه وصفد في طريقه كل شيطان

ونصره على كل وسوسة أنسية كانت أو جنية وأذاقه حلاوة الصيام وأنس الصائمين إلى مولاهم رب العالمين... فأنكر على الأرباب الأرضية ما تدعيه من خصائص الألوهية ولم يقبل منها شرعا ولا حكما إلا في حدود الإكراه.. ورحم الله الإمام محمد البوصيري حين يحث على هذه اليقظة الربانية النورانية بقوله:

وخالف النفس والشيطان واعصهما
وإن هما محضاك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصما ولا حكما
فأنت تعرف كيد الخصم والحكم

وما هذه اليقظة النورانية إلا إيمان وتفتح ويسر وطمأنينة وإدراك واستقامة وحياة وسعادة... إنها حقيقة روحية وفكرية تذاق بالتجربة ولا تملك العبارة إلا أن تستحضر مذاق التجربة ولكن لمن ذاقها فعلا.

ومن فضائل شهر رمضان المبارك ما رواه سلمان الفارسي رضي الله عنه في حديث أخرجه ابن خزيمة في صحيحه قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر يوم من شعبان قال: " **يا أيها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك، شهر فيه ليلة خير من ألف شهر، شهر جعل الله صيامه فريضة، وقيام ليله تطوعا، من تقرب فيه بخصلة من الخير كان كمن أدى فريضة فيما سواه، ومن أدى فريضة فيه كان كمن أدى سبعين فريضة فيما سواه** ".

وهو شهر الصبر والصبر ثوابه الجنة، وشهر المواساة، وشهر

يزاد في رزق المؤمن فيه.

" **ومن فطر فيه صائما كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار وكان مثل أجره من غير أن ينقص من أجره شيء**". قالوا يا رسول الله، ليس كلنا يجد ما يفطر الصائم؟ فقال عليه الصلاة والسلام: " **يعطي الله هذا الثواب من فطر صائما على تمرة أو على شربة ماء أومذقة لبن** ".

" وهو شهر أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار.. من خفف عن مملوكه فيه غفر الله له وأعتقه من النار ". " واستكثروا فيه من أربع خصال: " **خصلتين ترضون بهما ربكم، وخصلتين لا غناء بكم عنهما** ": فأما الخصلتان اللتان ترضون بهما ربكم فشهادة أن لا إله إلا الله وتستغفرونه وأما الخصلتان اللتان لا غناء بكم عنهما فتسألون الله الجنة وتعوذون به من النار، ومن سقى صائما، سقاه الله من حوضي شربة لا يظمأ حتى يدخل الجنة ".

وانظر رحمك الله كيف حث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم على الصدقة وعلى الإحسان بالمحتاجين.

فالدين المعاملة والدين النصيحة، فبدون المعاملة وبدون نفع المخلوقات فليس لله حاجة في أن يدع الصائم طعامه وشرابه لأنه تبرأ بفعلته القبيحة من جماعة المسلمين وخرج عنهم لأنه لم يهتم بشؤونهم البتة، فلا يعد من المسلمين على الراجح من السنة المطهرة.

فالصائم المخلص زيادة على عفوه وصفحه وحلمه ينفق مما عنده لينفع أخاه بعلمه أو بجاهه أوبماله أو بصحته... ولو بشق تمرة،

ولو بكلمة طيبة فلا يبخل، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه... أجل يبخل عن نفسه لأنه حرمها لذة الجود والكرم، يبخل عنها لأنه حرمها حتى من الدواء القليل الناجع الدواء الذين يشفي المصاب من داء الشح وداء الأبدان وداء العقول وداء الأموال... قال عليه الصلاة والسلام في حديث أخرجه أبوداود والطبراني والبيهقي عن الحسن رضي الله عنه: " **حصنوا أموالكم بالزكاة وداووا مرضاكم بالصدقة واستقبلوا أمواج البلاء بالدعاء والتضرع**".

قال الإمام ابن رشد رحمه الله في فتاويه: وإن صح الحديث فمعناه والله أعلم الحض على عيادة المرضى والترغيب في ذلك، لأن من الحقوق التي أوجبها الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم للأخ على أخيه المسلم أن يعوده إذا مرض. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **المسلم أخو المسلم يشهده إذا مات ويعوده إذا مرض وينتصح له إن غاب أو شهد** ". وعيادته أياه في مرضه معروف يصنعه إليه وكل معروف صدقة وهو إذا عاده وصله بذلك، وأدخل عليه السرور بعيادته أياه، ودعائه له. ولا شك في أن الرجاء في إجابة الدعاء له بالراحة والشفاء أكثر من الرجاء في الانتفاع بمعالجة الحكيم. إذ قد يتسبب بمعالجته فينفعه، وقد يخطئ فيها فتضره. والدعاء منفعة له على كل حال. وقد يحتمل أن يكون الحديث على ظاهره في المرض المحتاجين، لأن المريض المحتاج يستعين بما يتصدق به عليه على التداوي الذي قد أباحته الشريعة بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أخرجه الإمام مالك رضي الله

عنه في الموطأ: " أنزل الدواء الذي أنزل الأدواء ". سبحان الله، وهل الدواء إلا من الأدواء.

وعلق البرزلي على هذا الحديث الشريف فقال رحمه الله: " قلت: وحمله بعض شيوخنا القرويين على ظاهره وأنه إذا تصدق عنه ويطلب له الدعاء من المتصدق عليه يرجي له الشفاء لقوله صلى الله عليه وسلم: " **دعاء أحدكم لأخيه بظهر الغيب مستجاب** ".

مع قوله: " **جبلت القلوب على حب من أحسن إليها فيدعو له بفرجة فيرجي له القبول** ". فإذا كان دعاء المسلم لأخيه المسلم بظاهر الغيب مستجاب فكيف بدعاء الصائم الذي ينفع خلق الله؟ فهذا هو الصوم وهذا هو الصبر وهذا هو الشكر على النعم.

إن المال لا يذم لذاته بل يقع الذم لمعنى من الآدمي، وذلك المعنى إما لشدة حرصه أو تناوله من غير حله أو حبسه عن حقه أو إخراجه في غير وجهه أو المفاخرة به ولهذا قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ (28) وفي سنن الترمذي عن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم قال: " **ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم، بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه** ".

وقد كان السلف الصالح يخافون من فتنة المال وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا رأى الفتوح يبكي ويقول: " **ما حبس الله هذا عن نبيه صلى الله عليه وسلم وعن أبي بكر لشر أراده الله بهما وأعطاه عمر إرادة الخير له** ".

واعلم أن الذي يسأل الله الجنة ويستعيذ به من النار يدرك بالحال والأفعال.. ويرى بالبصر والبصيرة أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للإنسان، فيها حظ وهي الأرض وما عليها. فإن الأرض مسكن الآدمي قال تعالى في سورة طه: " **منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى** ".. وفي سورة البقرة قال لملائكته الأطهار: " **إني جاعل في الأرض خليفة** "؟ ويدرك أن ما على هذه الأرض من ملبس ومطعم ومشرب ومنكح كل ذلك علف لراحلة بدنة السائر إلى الله تعالى فإنه لا يبقى إلا بهذه المصالح كما لا تبقى الناقة في طريق الحج إلا بما يصلحها كما قال الإمام ابن قدامة رحمه الله في " **منهاج الصادقين** "... فمن تناول منها ما يصلحه على الوجه المأمور به مدح، ومن أخذ منها فوق الحاجة يكتنف الشرة ويقع في الذم.

وعلى العاقل أن ينظر في سيرة سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم وصحابته وآل بيته الكرام فإنهم ما كان لهم إفراط في تناول الدنيا ولا تفريط في حقوق النفس... ورحم الله البوصيري حين قال مشيرا إلى هذا المقام الأسنى:

فــــلا تـــرم بالمعاصـــي كـــسر شـــهوتها
إن الطعـــام يقـــوي شـــهوة الـــنهـم

والـــنفس كالطفـــل إن تهملـــه شـــب على
حـــب الرضـــاع وإن تفطمـــه يـــنفطم

فأصـــرف هـــواها وحـــاذر أن تولـــيه
إن الهـــوى مـــا تولـــى يـــصم أو يـــصم

وراعهـــا وهـــي في الأعمـــال ســـائـــمة
وإن هـــي اســـتحلت المرعـــى فـــلا تسم
ثم حـــسنت لـــــذة للـــمـــــرء قاتلـــة
مـــن حـــيث لم يـــدر أن الـــسم في الدسم
واخـــش الدســـائس مـــن جوع ومن شبع
فـــــرب مخمـــصة شـــــر مـــن الـــتخم
واســـتفرغ الدمـــع مـــن عـــين قد امتلأت
مـــــن المحـــارم وألـــزم حمـــية الـــندم

وهكذا شيئا فشيئا ينتهي بك الصوم إلى باب التوبة النصوح حيث القبول والرضى والرضوان.

ج – في رمضان ليلة هي خير من ألف شهر:

هذه الليلة المباركة الموعودة المشهودة التي سجلها الوجود كله في فرح وغبطة وابتهال، ليلة القدر. ليلة التقدير والتدبير ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ ﴾ ليلة الاتصال المطلق بين الأرض والملأ الأعلى، ليلة بدء نزول هذا القرآن المجيد من الرب الحميد الفعال لما يريد على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المبعوث إلى الناس كافة بشيرا ونذيرا ورحمة للعالمين.. قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝ ﴾

(القدر كلها).

والليلة التي تتحدث عنها السورة الكريمة هي الليلة التي جاء ذكرها في سورة الدخان: ﴿ حمٓ ۝ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝ ﴾.

والمعروف أنها ليلة من ليالي رمضان المعظم، كما ورد في سورة البقرة: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ ﴾ (185). أي التي بدأ فيها نزول القرآن على قلب الرسول الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد بلغ الأربعين من عمره الشريف، ليبلغه إلى الناس. وفي رواية ابن إسحاق أن أول الوحي بمطلع سورة العلق كان في شهر رمضان ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتحنث في غار حراء.

قال جل ذكره: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾ (العلق /1 - 5).. هذا أول ما نزل من القرآن باتفاق.. قال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر بن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: " أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه، وهو التعبد، الليالي ذوات

العدد، قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود إلى ذلك. ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها. حتى جاءه الحق وهو في غار حراء. فجاءه الملك فقال: " اقرأ قال ما أنا بقارئ قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة ثم قال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ .

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال: " زملوني، زملوني " فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال: يا خديجة ما لي؟ وأخبرها الخبر.

وقال: " قد خشيت على نفسي " فقالت: كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبدا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق ثم انطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي وهو ابن عم خديجة أخي أبيها. وكان امرءاً قد تنصر في الجاهلية.

كان يكتب الكتاب العربي، وكتب العبرانية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمي. فقالت خديجة أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال ورقة: ابن أخي ما ترى. فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رأى فقال ورقة: هذا الناموس

الذي أنزل على موسى، ليتني فيها جذع، ليتني أكون حيا حين يخرجك قومك.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مخرجي هم؟ فقال ورقة نعم، لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي وإن أدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا. ثم لم ينشب ورقة أن توفي. (أخرجه الشيخان من حديث الزهري).

وروى الطبري بإسناده عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " فجاءني وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب فقال: " اقرأ فقلت: ما أقرأ؟ فغطني حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال: " اقرأ " فقلت: ماذا أقرأ؟ وما أقول ذلك إلا افتداء من أن يعود إلي بمثل ما صنع بي. قال: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ ﴾ ... إلى قوله ﴿ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ . قال: فقرأته ثم انتهى. ثم انصرف عني وهببت من نومي، وكأنما كتب في قلبي كتابا. قال: ولم يكن من خلق الله أبغض علي من شاعر أو مجنون. كنت لا أطيق أن أنظر إليهما قال: قلت إن الأبعد، يعني نفسه، لشاعر أو مجنون؟" لا تحدث بها عني قريش أبدا؟؟ " لأعمدن إلى حالق من الجبل فلأطرحن نفسي منه فلأقتلنها فلأستريحن ! قال فخرجت أريد ذلك حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتا من السماء يقول: " يامحمد. أنت رسول الله وأنا جبريل".

قال فرفعت رأسي إلى السماء فإذا جبريل في صورة رجل حاف قدميه في أفـــق السماء يقول: " يا محمد أنت رسول الله وأنا

جبريل ". قال فوقفت أنظر إليه وشغلني ذلك عما أردت، فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذاك، فما زلت واقفا ما أتقدم أمامي، ولا أرجع ورائي، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي حتى بلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني. ثم انصرف عني وانصرفت راجعا إلى أهلي... ".

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ ﴾: " أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ثم نزل مفصلا بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ". ثم قال تعالى معظما لشأن ليلة القدر التي اختصها بإنزال القرآن العظيم فيها فقال:

﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ ﴾ . روى ابن أبي حاتم عن مجاهد: أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر رجلا من بني اسرائيل لبس السلاح في سبيل الله ألف شهر وهو ما يزيد عن الثمانين عاما، قال فعجب المسلمون من ذلك فأنزل الله عز وجل:

" إنا أنزلناه في ليلة القدر... إلى آخر السورة ".

ولما كانت ليلة القدر تعدل عبادتها عبادة ألف شهر، ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه

وسلم قال: " **من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه**". وعن سيدتنا عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل العشر الأواخر أحيا الليل وأيقظ أهله وشد المئزر ". (أي اعتزل النساء) وفي رواية لأحمد ومسلم: كان يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيرها.

وليلة القدر المباركة مختصة بالعشر الأواخر في ليالي الوتر من رمضان لقوله صلى الله عليه وسلم في حديث متفق عليه عن أبي سعيد الخدري وأبي ذر رضي الله عنهما: " التمسوها في العشر الأواخر من شهر رمضان، في كل وتر ". وأرجح الأقوال عند العلماء أنها ليلة السابع والعشرين من رمضان. قال أبي بن كعب رضي الله عنه فيما رواه الترمذي وصححه: " والله لقد علم ابن مسعود أنها في رمضان وأنها في ليلة سبع وعشرين ولكن كره أن يخبركم فتتكلوا ". وروى أبو داود عن معاوية رضي الله عنه " أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في ليلة القدر: " **ليلة سبع وعشرين**". ويرجحه قول ابن عباس رضي الله عنهما: "سورة القدر ثلاثون كلمة، السابعة والعشرون فيها: هي". وروى أحمد بإسناد صحيح عن ابن عمر حديثا نصه: " من كان متحريها فليتحرها ليلة سبع وعشرين

أو قال: تحروها ليلة سبع وعشرين ".

والحكمة في إخفائها أن يجتهد الناس في طلبها ويجدوا في العبادة طمعا في إدراكها، كما أخفى عبده المستجاب الدعاء بين خلقه، واسمه الأعظم في أسمائه الحسنى، وأخفى رضاه في

الحسنـــات إلى غير ذلك.

والمستحب أن يدعو المؤمن فيها ويلح في دعائه ويقول: " **اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني** ". أو بما يشاء من الأدعية العامة الجامعة، لما روت سيدتنا عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها في حديث رواه الخمسة قالت: " يا رسول الله أرأيت إن وافقت ليلة القدر ماذا أقول فيها قال: قولي: " **اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني** ".

وأما علاماتها: فالمشهور فيها ما ذكره أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الشمس تطلع في صبيحة يومها بيضاء لا شعاع لها " (ورواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وصححه) وفي بعض الأحاديث النبوية الشريفة: " بيضاء مثل الطست ".

وروي أيضا عنه صلى الله عليه وسلم: أن أمارة ليلة القدر: أنها ليلة صافية بلجة، كأن فيها قمرا ساطعا، ساكنة ساجية لا برد فيها ولا حر، ولا يحل لكوكب أن يرمى به فيها حتى تصبح، وأن أمارتها أن الشمس صبيحتها تخرج مستوية، ليس فيها شعاع مثل القمر ليلة البدر، لا يحل للشيطان أن يخرج معها يومئذ .

وروى ابن خزيمة من حديث ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعا: " ليلة القدر طلقة لا حارة ولا باردة، تصبح الشمس يومها حمراء ضعيفة ".ولأحمد من حديث عبادة: " لا حر فيها ولابرد، وأنها ساكنة صاحية، وقمرها ساطع ".

وورد في علامتها أحاديث منها: عن جابر بن سمرة عن ابن أبي

شيبة وعند جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عند ابن خزيمة وعن أبي هريرة عنده وعن ابن مسعود عند ابن شيبة وعن غيرهم رضوان الله على صحابة رسول الله أجمعين.

والليلة من العظمة بحيث تفوق حقيقتها حدود الإدراك البشري:

" **وما أدراك ما ليلة القدر** "، وذلك بدون حاجة إلى التعلق بالأساطير التي شاعت حول هذه الليلة في أوهام العامة. فهي ليلة عظيمة باختيار الله لها لبدء تنزيل القرآن المجيد، وإفاضة هذا النور على الوجود كله، وإسباغ السلام الذي فاض من روح الله على الضمير البشري والحياة الإنسانية، وبما تضمنه هذا القرآن من عقيدة وتصور وشريعة وآداب تشيع السلام في الأرض والضمير. وتنزيل الملائكة وعلى رأسهم جبريل عليه السلام، بإذن ربهم ومعهم هذا القرآن باعتبار جنسه الذي نزل في هذه الليلة المباركة، وانتشارهم فيما بين السماء والأرض في هذا المهرجان الكوني، الذي تصوره كلمات السورة تصويرا عجيبا.

لقد فرق في هذه الليلة السعيدة من كل أمر حكيم. وقد وضعت فيها من قيم وأسس وموازين، وقد قررت فيها من أقدار أكبر من أقدار الأفراد، أقدار أمم ودول وشعوب، بل أكثر وأعظم، أقدار حقائق وأوضاع وعلوم. ولقد تغفل البشرية، لجهالتها ونكد طالعها، عن قدر ليلة القدر، وعن حقيقة ذلك الحدث، وعظمة هذا الأمر. وهي منذ أن جهلت هذا وأغفلته فقدت أسعد وأجمل آلاء الله

عليها، وخسرت السعادة والسلام الحقيقي، سلام الضمير وسلام البيت وسلام المجتمع الذي وهبها إياه الإسلام. ولم يعوضها عما فقدت ما فتح عليها من أبواب كل شيء من المادة والحضارة والعمارة، فهي شقيـــة على الرغم من فيض الإنتاج وتوافر وسائل المعاش.

ونحن المؤمنون، مأمورون أن لا ننسى ولا نغفل عن هذه الذكرى، وقد جعل لنا نبينا صلى الله عليه وسلم سبيلا هينا لينا، لاستحياء هذه الذكرى في أرواحنا لتظل موصولة بها أبدا، موصولة كذلك بالحدث الكوني الذي كان فيها وذلك فيما حثنا عليه من قيام هذه الليلة من كل عام إيمانا واحتسابا، فمن قامها على هذه الحالة غفر له ما تقدم من ذنبه.. والإسلام ليس شكليات ظاهرية ومن ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في القيام في هذه الليلة المباركة أن يكون " **إيمانا واحتسابا** ".. وذلك ليكون هذا القيام استحياء للمعاني الكبيرة التي اشتملت عليها هذه الليلة " **إيمانا** " وليكون تجردا لله وخلوصا " **واحتسابا** "، ومن ثم تنبض في القلب حقيقة معينة بهذا القيام، ترتبط بذلك المعنى الذي نزل به القرآن..

وما فائدة صيام المسلمين رمضان المبارك وقيامهم ليلة القدر العظيمة ودماء أبنائهم وإخوانهم تهرق هدرا وظلما وعدوانا هنا وهناك يقتل بعضهم بعضا؟ فهلا يوفروا جهودهم هذه ويوجهوها صفا واحدا للصهاينة وعملائهم في فلسطين الحبيبة والبوسنة الأرملة اليتيمة وغيرها.. قال تعالى في سورة الحجرات: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ

ﱡٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ١٥ﱠ.

والنفس المؤمنة لتصطدم في الحياة بشدائد تزلزل، ونوازل تزعزع، والتي تثبت فلا تضطرب وتثق ولا ترتاب، وتظل مستقيمة موصولة هي التي تستحق هذه الدرجة عند الله. فالإيمان تصديق القلب بالله ورسوله، التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب، التصديق المطمئن الثابت المستيقن الذي لا يتزعزع ولا يضطرب، ولا تهجس فيه الهواجس، ولا يتلجلج فيه القلب والشعور والذي ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله، في سبيل إعلاء كلمة الله وفي سبيل تحرر الرقاب من عبودية غير الله، لا في سبيل إرضاء قوم دون قوم أو مذهب دون مذهب ولا جريا وراء السلطان والجبروت، ولكن ضد كل طاغوت لا يقيم للنفس البشرية وزنا ولا للأخلاق ميزانا ولا للعقيدة الحنيفية اعتبارا.. فالقلب متى تذوق حلاوة هذا الإيمان وأطمأن إليه وثبت عليه، لا بد مندفع لتحقيق حقيقته في خارج القلب، في واقع الحياة، في دنيا الناس، فإنه لا يطيق الصبر على المفارقة بين الصورة الإيمانية التي في حسه والصورة الواقعية من حوله لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه في كل لحظة.. ومن هنا هذا الانطلاق إلى الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس.. فهو انطلاق ذاتي من نفس المؤمن، انطلاق لا يعني أبدا العنف والتهور في الإقدام، بل الحكمة والموعظة الحسنة والصفح الجميل، انطلاق يقتضي أن يكون الداعي إسلاما يمشي على الأرض، لا تتناقض أسراره وسلوكه ولا

أقواله وأفعاله، انطلاق يقتضي حتميا إعداد جيل يكون المجتمع الإسلامي ويدافع عن الحق وأهله ولا يخاف في الله لومة لائم.. وما نهض الرسول الكريم بالدعوة جهرا إلا بعد أعوام وما أمر أصحابه الكرام بالجهاد وحث عليه ورغب فيه إلا بعد أن بنى في النفوس صرح العقيدة وحصنه من داخله وخارجه بحصون الأخوة الصادقة في الله جل علاه... فإذا لم تتحقق هذه المبادئ وهذه المشاعر في القلب والحياة، فالإيمان لا يتحقق، إيمان الذين يخادعون الله وهو خادعهم، إيمان الذين يهاجرون لامرأة أعجبوا بحسنها، إيمان الذين يمكرون والله خير الماكرين.. ويشير الإمـــام الشهيد سيد قطب رحمه الله في الظلال إلى هذه الحقيقة ويقول: " إن العقيدة الدينية فكرة كلية تربط الإنسان بقوى الكون الظاهرة والخفية وتثبت روحه بالثقة والطمأنينة، وتمنحه القدرة على مواجهة القوى الزائلة والأوضاع الباطلة، بقوة اليقين في النصر، وقوة الثقة في الله تعالى وهي تفسر للفرد علاقاته بما حوله من الناس والأحداث والأشياء، وتوضح له غايته واتجاهه وطريقه، وتجمع طاقاته وقواه كلها، وتدفعها في اتجاه، ومن هنا كذلك قوتها. قوة تجميع القوى والطاقات حول محور واحد وتوجيهها في اتجاه واحد تمضي إليه مستنيرة الهدف في قوة وفي ثقة وفي يقين ".

3 - رمضان شهر القرآن الكريم

أ - من أسرار الإعجاز في القرآن الكريم

• القرآن كلام الله القديم:

إن القرآن المجيد ليس ألفاظا وعبارات يحاول الإنس والجن أن يحاكوها، إنما هو كسائر ما يبدعه الله يعجز المخلوقون أن يصنعوه. هو كالروح من أمر الله لا يدرك الخلق سره الشامل الكامل، وإن أدركوا بعض أوصافه وخصائصه وآثاره. والقرآن بعد ذلك منهج حياة كامل، منهج ملحوظ. فيه نواميس الفطرة التي تصرف النفس البشرية في كل أطوارها وأحوالها، والتي تصرف الجماعات الإنسانية في كل ظروفها وأطوارها. ومن ثم فهو يعالج النفس المفردة، ويعالج الجماعة المتشابكة، بالقوانين الملائمة للفطرة المتغلغلة في وشائجها ودروبها ومنحنياتها الكثيرة، يعالج علاجا متكاملا متناسق الخطوات في كل جانب في الوقت الواحد، فلا يغيب عن احتسابه احتمال من الاحتمالات الكثيرة ولا ملابسة من الملابسات المتعارضة في حياة الفرد وحياة الجماعة لأن مشرع هذه القوانين هو العليم بالفطرة في كل أحوالها وملابساتها المتشابكة.

أما النظم البشرية فهي متأثرة بقصور الإنسان وملابسات حياته، ومن ثم فهي تقصر عن الإحاطة بجميع الاحتمالات في الوقت الواحد. وقد تعالج ظاهرة فردية أو اجتماعية بدواء يؤدي بدوره إلى

بروز ظاهرة أخرى تحتاج إلى علاج جديد. إن إعجاز القرآن أبعد مدى من إعجاز نظمه ومعانيه، وعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله هو عجز كذلك عن إبداع منهج كمنهجه، يحيط بما يحيط به.

واعلم أنه على حدة بصر السائق وحده تتوقف نجاة الركاب لا على حدة أبصارهم وقوة كل منها. وما الفائدة من قوة النظر عند الركاب وقائد السيارة أعمى؟؟ والرسول الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم نشأ يتيما فقيرا مات أبوه عبد الله وهو في بطن أمه آمنة بنت وهب. وماتت أمه هي الأخرى وهو في الربيع السادس من عمره، ولم يكن له سابق عهد بالقراءة أو الكتابة، لقبه قومه بالأمين منذ صغره، لم يكن يوما بالظنين ولم يجلس إلى منتديات الجاهلية المتفشية الموبوؤة ولم يكذب قط في حياته، وكيف وهو المعصوم من ولادته وكذلك سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام.. قال الشاعر في حقه صلى الله عليه وسلم:

لقبـــتموه أمـــين القـــوم في صـــغر

ومـــا الأمـــين علـــى القـــوم بمـــتهم

لم يتلق دروسا في الفلك أو التنجيم أو الطب أو الهندسة أو العلوم أو الرياضة أو البلاغة.. قال تعالى في سورة النساء: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ (113). لم يُدَلِّله أبٌ ولم تهدهده أم، كفله جده عبد المطلب ثم عمه أبوطالب. لقد أحزنه أمر الجاهلية وأضناه في ظلال قومـــه.

فكان دعاءه لهم بالهداية: " **اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون** " وكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم شديد الحياء لا يمكن أويوضع موضع الشبهات أو الإفتراءات للعناية الإلهية التي كانت تحيط به والتي أحاطت وتحيط دوما سائر أتباعه إلى يوم الدين.

فأين العقل البشري الذي يطيق أو يحتمل كل أو بعض ما تحدث عنه القرآن من علوم وطب وهندسة وتشريع إلخ... والقرآن كما تعلم ليس من قول البشر لأنه يعجز العرب جميعا وأهل الفصاحة والبيان، وينفي أن يأتوا بمثله ويعلق ذلك في صريح العبارة في قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (88). يخبر الله تعالى أنه لو اجتمعت الإنس والجن كلهم واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا وتظافروا. فإن هذا أمر لا يستطاع وكيف يشبه كلام المخلوقين كلام الله الخالق القديم، لا نظير له ولا مثيل ولا عديل؟؟

وقد حاول مسيلمة الكذاب أن يؤلف قرآنا فلم يفلح وأنقلب مذؤوما مدحورا خاسرا خسران الدارين. وفيما قال وزعم أنه قرآن آخر أوحي إليه: " إنا أعطيناك الجماهر، فصل لربك وجاهر ".. وقوله أيضا: " إنا أعطيناك الرحراح، فصل لربك وارتاح، أنه كان الحصان الرماح ". وهل يقارن الكوثر وهو الخير الكثير والسعادة

الأبدية في العاجلة والآجلة بالرحراح الذي يعني العيش الرغد المادي المحدود؟ فليس أمامنا مجال للمقارنة. فهذه الكلمات الجوفاء الفارغة تتحدث عن نفسها تفاهة وقصورا.

ونكون قد أرزينا بالأدب والذوق الرفيـــع لو أتعبنا أنفسنا في نقده كما قال الدكتـــور السيد الجميلي في كتابـــه: " **الإعجاز الطبي في القرآن** ".

وانظر كيف يوضح الجاحدون الكافرون وجهة اعتراضهم الشخصية.. قال تعالى عنهم في سورة النحل: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (103). أجل، فهم يعرفون أنه تنزيل من رب العالمين لكن الإختلاف هو في شخص النبي المرسل إليهم عليه الصلاة والسلام، فهم يريدون رسولا بما تهوى نفوسهم ويريدون أن يتبعوا الحق الذي يوافق مزاجهم ولا يزلزل عاداتهم وجاهليتهم..

قال تعالى في سورة المؤمنون: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَـٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم

مُعۡرِضُونَ ﴿٧١﴾ (68 - 71).

إن مثل ما جاء به سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يملك من يتدبره أن يظل معرضا عنه، ففيه من الجمال وفيه من الكمال وفيه من التناسق، وفيه من الجاذبية، وفيه موافقة الفطرة، وفيه من الإيحاءات الوجدانية، وفيه من غذاء القلب، وفيه من زاد الفكر، وفيه من عظمة الإتجاهات، وفيه من قويم المناهج، وفيه من محكم التشريع، وفيه من كل شيء ما يستجيش كل عناصر الفطرة ويغذيها ويلبيها ﴿ أَفَلَمۡ يَدَّبَّرُواْ ٱلۡقَوۡلَ ﴾؟ فهذا سر إعراضهم عنه لأنهم لم يدبروه فكان بدعا في مالوفهم ومألوف آبائهم أن يجيئهم رسول او أن يجيئهم بكلمة التوحيد، وذلك تاريخ الرسالات كلها يثبت أن الرسل جاؤوا قومهم تترى، وكلهم جاء بالكلمة الواحدة التي يدعوهم إليها هذا الرسول.. " أم لم يعرفوا رسولهم "؟ وقد يكون هذا هو سر الإعراض والتكذيب ! كلا ! بل يعرفون رسولهم حق المعرفة، يعرفون شخصه الكريم ونسبه، ويعرفون أكثر من أي أحد صفاته: يعرفون صدقه وأمانته حتى لقبوه قبل الرسالة بالأمين، ويعرفون وهم على ثقة أنه العاقل الكامل الذي لا يعرفون عنه زلة في تاريخه الطويل، ومع ذلك يقولون " به جنة ". يا سبحان الله !!، إنه ما من شبهة من هذه الشبهات يمكن أن يكون لها أصل. إنما هي كراهية أكثرهم للحق لأنه يسلبهم القيم الباطلة التي بها يعيشون، ويصدم أهواءهم المتأصلة التي بها يعتزون.

والحق لا يمكن أن يدور مع الهوى وبالحق تقوم السماوات

والأرض وبالحق يستقيم الناموس وتجري السنن في هذا الكون الفسيح وما فيه ومن فيه. فالحق واحد ثابت، والأهواء كثيرة متقلبة بالحق الواحد يدبر الكون كله، فلا ينحرف ناموسه لهوى عارض، ولا تتخلف سنته لرغبة طارئة ولو خضع الكون للأهواء العارضة، والرغبات الطارئة لفسد كله ولفسد الناس معه، ولفسدت القيم والأوضاع، واختلت الموازين والمقاييس، وأرجحت كلها بين الغضب والرضى، والكره والبغض والرغبة والرهبة، والنشاط والخمول، وسائر ما يعرض من الأهواء والمواجد والانفعالات والتأثرات، وبناء الكون المادي وإتجاهه إلى غايته كلاهما في حاجة إلى الثبات والاستقرار والاطراد على قاعدة ثابتة ونهج مرسوم، لا يختلف ولا يتأرجح ولا يحيد.

ومن هذه القاعدة الكبرى في بناء الكون وتدبيره، جعل الإسلام التشريع للحياة البشرية جزءا من الناموس الكوني، تتولاه اليد التي تدّبر الكون كله وتنسق أجزاءه جميعا. والبشر جزء من هذا الكون، خاضع لناموسه الكبير فأولى أن يشرع لهذا الجزء من يشرع للكون كله، ويدبره في تناسق عجيب، بذلك لا يخضع نظام البشر للأهواء فيفسد ويختل: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ ، إنما يخضع للحق الكلي ولتدبير صاحب التدبير الرب المتعالي الحكيم الخبير.

وهذه الأمة التي جاء لها الإسلام كانت أولى الأمم بإتباع الحق الذي يتمثل فيه، فمع أنه الحق هو كذلك مجد لها وذكر، ولولاه ما

كان لها ذكر في العالمين.. وقد ظل ذكرها بالإسلام يدوي في آذان القرون طالما كانت به مستمسكة وقد تضاءل ذكرها عندما تخلت عنه، فلم تعد في العير ولا في النفير، ولن يقوم لها ذكر إلا أن تفيء إلى عنوانها الكبير !!.

لقد اقتضت الحكمة الإلهية أن تكون لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم معجزة من جنس ما اشتهر العرب بالنبوغ فيه لأن كل رسول تكون معجزته من جنس ما نبغت فيه أمته. ولما كان قوم فرعون أهل علوم رياضية وطبيعية وأولى سحر وصناعة أتى الله رسوله سيدنا موسى آيات كان العلماء والسحرة أعلم الناس بها بأنها من عند الله لا من كسب نبي الله موسى، كانت معجزة سيدنا موسى عصا انقلبت حية تسعى، فلقفت كل حبال السحرة. قال تعالى عن تلك المناظرة التاريخية الفاصلة بين الحق والباطل وبين الكفر والإيمان:

﴿ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿116﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿117﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿118﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿119﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿120﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿121﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿122﴾ ﴾ (الأعراف/116-122).

ولما كان قوم سيدنا عيسى ابن مريم عليهما السلام قد اشتهروا بالطب وغلب عليهم إنكار الروح آتاه الله من الآيات إبراء

الأكمه والأبرص والنفخ في هيئة الطير فيكون طائرا وإحياء الأموات بإذن الله سبحانه..

واعلم أن معجزات الرسل السابقين الدالة على صدق نبوتهم هي وقائع تنقضي يراها الذين عاصروا الأنبياء فيؤمنون حق الإيمان بمن جاءت على يدهم ولا يراها الذين يأتون من بعدهم بل تصل إليهم أخبارها فيضعف تأثيرها على الأمم التالية. ثم إن المعجزات توفق عقول تلك الأزمان التي كان فيها العقل في طور الطفولة، والآن بعد أن ترقى العقل وكثرت المعارف ودخلت الشبهات على الأديان ضعف تأثير هذه المعجزات على اتباع الأديان أو بالأحرى ضعف الإيمان، وتسرَّى الإلحاد فكان الدين بحاجة إلى دلائل وبراهين على صحته غير البراهين السالفة.

ومما يجهله أكثر الناس أن الإسلام سار على غير سمت الأديان التي كانت قبله وسن نهجا جديدا في البرهان على صحته وعلى أنه من عند الله تعالى. فالقرآن هو الكتاب المعجزة للبشر بهدايته وتشريعه وأسلوبه ومعانيه التي تتميز بخلودها وبقائها على مر الزمن. فقد أنزل القرآن بعد أن ترقى العقل البشري، فكان البرهان الذي أتى به يتفق مع هذا الترقي، وكان الدواء والشفاء لكل الأدواء.

• القرآن محفوظ من كل تحريف:

وإذا تأملت قليلا في الماضي البعيد تدرك جليا أنه لم تعن أمة في العالم بكتاب سماوي أو أرضي عناية الأمة الإسلامية بالقرآن الكريم، ولم يحط كلام إلهي أو بشري بمثل ما أحيطت به آياته من

وسائل الحفظ والرعاية والتقديس. فقد كانت تنزل الآية أو الآيات منه فيحفظها أولا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم عن ظهر قلب لأنه وحي إلهي، والذي يعرفه الإمام محمد عبدو رحمه الله بقوله في رسالة التوحيد: " إن الوحي عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة والأول بصوت يتمثل لسمعه أوبغير صوت، ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور. هذا التعريف يشمل أنواع الوحي الثلاثة الواردة في قوله تعالى في سورة الشورى:

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾ (51).

فالوحي هنا إلقاء المعنى في القلب، والكلام من وراء حجاب هو أن يسمع كلام الله من حيث لا يراه كما كلم الله سيدنا موسى عليه السلام وأما الثالث فهو ما يلقيه ملك الوحي سيدنا جبريل عليه السلام من الله إلى رسوله فيراه متمثلا بصورة رجل.. وكان يتمثل لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مرارا على صفة أحد صحابته الكرام دحية الكلبي رضي الله عنه، وقد جاءه كذلك على مرأى ومسمع من صحابته يوم أن سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان وعلامات الساعة، أو غير متمثل بأن يسمعه منه أو يعيه بقلبه.. لا كما يزعم بعض كتاب الغرب حيث يصف الوحي الذي كان ينزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بأنه نوع من " الهيستريا "..

فهذا الإفتراء لا يرتكز على أي أساس علمي أو واقعي وذلك من وجوه كما قال الأستاذ محمد فريد وجدي رحمه الله:

- منها أن الهذيان " الهستيري " لا يحدث إلا مصحوبا بأعراض ثقيلة من التخبط والاضطراب والصياح والعويل، وهو ما لم يحصل للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم حتى في أثقل حالات الوحي عليه.

- ومنها أن ما ينسب " للهستيريا " من هذيان يحدث في اثناء النوبة فإذا أفاق المريض لم يذكر شيئا مما قاله. وهكذا على عكس حالة الرسول صلى الله عليه وسلم فقد كان لا ينطق في أثناء الوحي بشيء حتى يتم، فيعيد كل ما ألقي إليه، ويأمر بتدوينه.

- ومنها أن مواضيع الهذيانات الهستيرية لا تخرج عادة إلا عن تصورات وهمية تناسب الأعصاب المتعبة المريضة كتخيل المريض رؤية روح شريرة تتوعده بالأذى أو تتقصده بالقتل أوتقلقه بالاستهزاء والتحقير، ولم يشاهد هذيان هستيري قط موضوعه نشر فضيلة أو إذاعة هداية " ثم لم يكن القرآن كغيره من الكتب المقدسة التي سبقته محتكرا في يد طائفة من الطوائف حتى يتسرب إلى الذهن ظن أواحتمال طروء التحريف إليه قصدا أو عفوا بل كان عاما شائعا بين أيدي المسلمين، أمروا أن يتعبدوا بتلاوته في صلواتهم وأن يحكموا به، فكيف يتصور أن يقع

فيه تحريف ولا يدرى به جمهورهم وهم إذ ذاك جاعلوه دستورهم في كل محاولاتهم الدينية والاجتماعية؟؟.

ثم إن القرآن قبل أن يجمع في زمن سيدنا أبي بكر الصديق رضوان الله عليه كانت أجزاؤه المكتوبة موجودة عند الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في بيته، وكثير من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.. وكان هؤلاء يتلونه في بيوتهم. ولما جمعه أخيرا سيدنا عثمان بن عفان ذو النورين، رضي الله عنه، كان أكثر كتابه وحفاظه لا يزالون على قيد الحياة، فكيف يعقل أن يتطرق إليه التحريف مع هذا؟ وصدق الله تعالى إذ قال في محكم تنزيله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝ ﴾ (الحجر / 9).

ولننظر نحن اليوم من وراء القرون إلى وعد الله الحق بحفظ هذا الذكر، فنرى فيه المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب إلى جانب غيرها من الشواهد الكثيرة ونرى أن الأحوال والظروف والملابسات والعوامل التي تقلبت على هذا الكتاب المقدس في خلال هذه القرون ما كان يمكن أن تتركه مصونا محفوظا، لا تتبدل فيه كلمة، ولا تحرف فيه جملة، لولا أن هنالك قدرة خارجة عن إرادة البشر، أكبر من الأحوال والظروف والملابسات والعوامل، تحفظ هذا الكتاب من التغيير والتبديل وتصونه من العبث والتحريف.

لقد جاء على هذا القرآن زمان في أيام الفتن الأول كثرت فيه الفرق، وكثر فيها النزاع، وطمت فيه الفتن، وتماوجت فيه الأحداث، وراحت كل فرقة تبحث لها عن سند في هذا القرآن وفي

حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل في هذه الفتن وساقها أعداء هذا الدين الأصلاء من اليهود خاصة ثم من القوميين دعاة " القومية " الذي تسموا " بالشعوبيين ". ولقد أدخلت هذه الفرق على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أحتاج إلى جهد عشرات العلماء المجتهدين الأتقياء الأذكياء، عشرات من السنين لتحرير سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وغربلتها وتنقيتها من كل دخيل عليها من كيد أولئك الكائدين لهذا الدين. كما استطاعت هذه الفرق في تلك الفتن أن تُؤول معاني النصوص القرآنية وفق هواها وأن تحاول أن تلوى هذه النصوص لتشهد لها بما تريد تقريره من الأحكام والاتجاهات كالذي يفر مثلا من النصوص المحكمة التي تحرم الخمور والفجور والربا والقمار وما إلى ذلك ويرفع عاليا شعار الآية التي تنص على أن في العسل شفاء للناس، وما مصلحته في ذلك إلا أنه أراد فقط أو يروج لبضاعته.. وقد فعل.. فالقرآن كل لا يتجزأ، وليس لأحد أن يقول فيه برأيه، وليس للحق أن يخضع لرغبات الناس كلا ! بل عليهم أن يأتوه خاضعين، موقنين صادقين...

والحمد لله أن عجزت هذه المكائد جميعا وفي أشد أوقات الفتن حلوكة واضطرابا أن تحدث حدثا واحدا في نصوص هذا الكتاب المحفوظ، وبقيت نصوصه كما أنزلها الله تعالى على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، حجة باقية على كل محرف وكل مؤول وحجة باقية كذلك على ربانية هذا الذكر المحفوظ.

ثم جاء على المسلمين زمان ما نزال نعانيه، ضعفوا فيه عن

حماية أنفسهم وعن حماية عقيدتهم وعن حماية نظامهم، وعن حماية أرضهم، وعن حماية أعراضهم وأموالهم وأخلاقهم وحتى عن حماية عقولهم وإدراكهم، وغير عليهم أعداؤهم الغالبون كل معروف عندهم وأحلوا مكانة كل منكر فيهم.. كل منكر من العقائد والتصورات ومن القيم والموازين، ومن الأخلاق والعادات، ومن الأنظمة والقوانين، وزينوا لهم الانحلال والفساد والتوقح والتعري من كل خصائص الإنسان باسم التحرر والتمدن والانفتاح، وردوهم إلى حياة كحياة الحيوان... وأحيانا إلى حياة يشمئز منها الحيوان ذاته. ووضعوا لهم ذلك الشر كله تحت عنوانات براقة من " التقدم " و" التطور" و" العلمية " و" الانطلاق " و" تحطيم الأغلال " و" التروية " والتجديد " إلى آخر تلك الشعارات والعناوين وأصبح المسلمون وآسفاه ! بالأسماء وحدها مسلمين ليس لهم من هذا الدين قليل ولا كثير وباتوا غثاءاً كغثاء السيل لا يمنع ولا يدفع، ولايصلح لشيء إلا أن يكون وقودا للنار فهو وقود هزيل. ولكن أعداء الدين بعد هذا كله، لم يستطيعوا تبديل نصوص هذا الكتاب ولا تحريفها ولم يكونوا في هذا من الزاهدين، فلقد كانوا أحرص الناس على بلوغ هذا الهدف لو كان يبلغ، وعلى نيل هذه الأمنية لو كانت تنال.

ولقد بذل أعداء هذا الدين وفي مقدمتهم اليهود رصيدهم من تجارب أربعة آلاف سنة أو تزيد في الكيد لدين الله، وقدروا على أشياء كثيرة، قدروا على الدس في سنة رسول الله صلى الله عليه

وسلم وعلى تاريخ الأمة المسلمة، وقدروا على تزوير الأحداث ودس الأشخاص في جسم المجتمع المسلم ليؤدوا الأدوار التي يعجزون عن أدائها وهم سافرون. وقدروا على تحطيم الدول والمجتمعات والأنظمة والقوانين وقدروا على تقديم عملائهم الخونة في صورة الأبطال الأمجاد ليقوموا لهم بأعمال الهدم والتدمير في أجسام المجتمعات الإسلامية على مدار القرون وبخاصة في العصر الحديث ولكنهم لم يقدروا على شيء واحد والظروف الظاهرية كلها مهيأة له، لم يقدروا على إحداث شيء في هذا الكتاب المحفوظ، الذي لا حماية له من أهله المنتسبين إليه وهم بعد أن نبذوه وراء ظهورهم غثاءاً كغثاء السيل لا يدفع ولا يمنع، فدل هذا مرة أخرى على ربانية هذا الكتاب وشهدت هذه المعجزة الباهرة بأنه حقا تنزيل من العزيز الحكيم.

لقد كان هذا الوعد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مجرد وعد أما هو اليوم، من وراء كل تلك الأحداث الضخام، ومن وراء كل تلك القرون الطوال، فهو المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب و ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾، الربانية التي لا يماري فيها إلا عنيد جهول...

● من وجوه إعجاز القرآن:

وللقرآن وجوه كثيرة من الإعجاز تشهد أنه وحي إلهي، منها:

* الفصاحة العجيبة:

إن عجيب نظمه وبديع تأليفه لا يتفاوت ولا يتباين على ما يتعرض إليه من الوجود من ذكر قصص، ومواعظ وحكم وأحكام

ووعد ووعيد وأخلاق كريمة وغير ذلك، وأننا نجد كلام البليغ والشاعر والمفلق يختلف على حسب اختلاف هذه الأمور. فمن الشعراء من يجود في المدح دون الهجو، ومنهم من يسبق في التقريظ دون التأبين، ومنهم من يجوّد في بعض النواحي من وصف الروض أوالخمر أو الغزل أو الحكم أو غير ذلك.. ولذلك ضرب المثل بامرئ القيس إذا ركب، والنابغة إذا رهب وبزُهير إذا رغب ومثل ذلك يختلف في الخطاب والرسائل وسائر أجناس الكلام، ومتى تأملت شعر الشاعر البليغ رأيت التفاوت في شعره على حساب الأحوال التي يتصرف فيها، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى، فإذا جاء إلى غيره قصر عنه، وبان الاختلاف على شعره. ومتى تأملت نظم القرآن وجدت أن جميع ما يتصرف فيه من الوجوه لاتفاوت فيها ولا انحطاط عن المنزلة العليا من البلاغة كما قال الإمام الباقلاني رحمه الله.

وناحية أخرى جديرة بالإعتبار وهي أن تخير الألفاظ للمعاني المتداولة المألوفة أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة، فمن المعترف به أن فصاحة العرب كان أكثرها في وصف الأطلال والحنين إلى الأحبة والإبل والصيد، والغزل والمدح والفخر والهجاء، والبلاغة في هذه الأشياء المحسوسة متسعة جدا لأن طبائع أكثر الناس تكون مائلة إليها، كما أن كثيراً من الشعراء عالجوا هذه النواحي فعلى هذا يكون المتأخر المتبع لأقوال الشعراء الذين سبقوه تحصل لهم ملكة في البلاغة في هذه الميادين بعد الممارسة.وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم رأيناه لم يتعرض لهذه الأشياء البتّة، فكان من الطبيعي أن تحصل فيه

الألفاظ الفصيحة التي اتفقت العرب عليها، ولكن القرآن تعرض لنواح أخرى لم تكن معهودة عند العرب كالتحدث عن الله وعظمته ووصف قدرته، والدعوة إلى عبادته، وتنزيهه عما لا يليق به، ووصف ما أعده من النعيم للذين يطيعونه والعذاب للكفرة والعاصين وكذلك يقص القرآن الكريم أنباء الرسل مع قومهم، وماتحتويه من العبر وأنواع العبادات، والحث على مكارم الأخلاق وتحريم القبائح وأسس التشريع في المـــال، والحكم والأسرة وغير ذلك...وأمثال هذه الأمور تستعصي على البليغ فلا يستطيع التعبير عنها ببلاغته المعهودة.وإذا تمعنا في آيات القرآن الكريم نراه عالج جميع هذه الأمور في نهاية الفصاحة واستخدم لذلك ضروب التأكيد، وأنواع التشبيه والتمثيل، وأصناف الاستعارة وغير ذلك من فنون البلاغة التي بهرت قراء العربية في جميع العصور.

فمن أين لأمي كالنبي عليه السلام أو متعلم مهما أوتي من العلم أن يؤلف ستة آلاف آية (عدد آيات القرآن على التقريب) بهذه الفصاحة والإتساق؟ إن في ذلك لآية على أن القرآن منزلٌ من عند الله جلّ علاه..

* سلامة القرآن من التناقض والخطأ:

وشيء آخر هو أن القرآن على ضخامته يخلو من التعارض والتناقض والخطأ والاختلاف، خلافا لجميع كلام البشر. فإننا نجد كبار العلماء في كل عصر، يصنفون ثم يطبعون وينشرون مؤلفاتهم ثم يظهر لهم أو لغيرهم كثير من التعارض والاختلاف والأخلاط اللفظية

والمعنوية، أو تكون مؤلفاتهم أفضل الكتب وأحكمها في عصر مؤلفيها وبعد عصرهم بعدة عصور، ثم ترتقي العلوم وتتغير أصول العمران فيظهر الاختلاف والخطأ في الكثير مما فيها وهذا أمر مشهور عند العلماء. وقد ظهر القرآن الكريم على لسان أمي لم يتعلم القراءة ولا الكتابة، فكيف يمر عليه أربعة عشر قرنا تتغير فيه العقلية البشرية ولا يظهر فيه اختلاف؟ بل نرى الأصول التي أتى بها القرآن تتناسب مع كل زمان ومكان..

وعن خصائص إعجاز القرآن يقول الأستاذ الرافعي رحمه الله:

" إننا نرى أسلوب القرآن في اللين.. والمرونة في التأويل بحيث لا يصادم الآراء الكثيرة المتقابلة التي تخرج من طبائع العصور المختلفة، فهو يفسر في كل عصر بنقص من المعنى وزيادة فيه وقد فهمه عرب الجاهلية الذين لم يكن لهم إلا الفطرة، وفهمه كذلك من جاء بعدهم من الفلاسفة وأهل العلوم، وفهمه زعماء الفرق المختلفة على ضروب من التأويل وأثبتت العلوم الحديثة كثيرا من حقائقه التي كانت مغيبة.. وإن ما عهد من كلام الناس لا يحتمل كل ذلك ولا بعضه ". وليس شيء في أسلوب القرآن في بعض مواضعه مما يدخله في شبه من كلام أو يرده إلى طبع معروف من طباع البُلغاء.

وإلى هذه الحكمة الباهرة يشير الله تعالى في سورة النساء ويقول:

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ (82).

وفي هذا العرض، وهذا التوجيه منتهى الإكرام للإنسان وإدراكه وشخصيته كما أن فيه منتهى النصفة من الاحتكام إلى هذا الإدراك في ظاهرة لا يعييه إدراكها وهي في الوقت ذاته دلالة لا تمارى.

والتناسق المطلق الشامل الكامل هو الظاهرة التي لا يخطئها من تدبر هذا القرآن أبدا، ومستوياتها ومجالاتها مما تختلف العقول والأجيال في إدراك مداها. ولكن كل عقل وكل جيل يجد منها بحسب قدرته وثقافته وتجربته وتقواه ما يملك إدراكه في محيط يتكيف بمدى القدرة والثقافة والتجربة والتقوى.

ومن ثم فإن كل أحد وكل جيل مخاطب بهذه الآية الكريمة، ومستطيع عند التدبر وفق منهج مستقيم أن يدرك هذه الظاهرة، ظاهرة عدم الاختلاف أو ظاهرة التناسق ما تهيئه له قدرته وثقافته وتجربته وتقواه.

وإذا كان الفارق بين صنعة الله وصنعة الإنسان واضحا كل الوضوح في جانب التعبير اللفظي والأداء الفني فإنه أوضح من ذلك في جانب التفكير والتنظيم والتشريع. وما من نظرية بشرية وما من مذهب بشري إلا وهو يحمل الطابع البشري، جزئية النظر والرؤية، والتأثر الوقتي بالمشكلات الوقتية، وعدم رؤية المتناقضات في النظرية أو المذهب أو الخطة، التي تؤدي إلى الاصطدام بين مكوناتها، إن عاجلا أو آجلا، كما تؤدي إلى إيذاء بعض الخصائص في الشخصية البشرية الواحدة التي لم يحسب حساب بعضها، أو في مجموعة

الشخصيات الذين لم يحسب حساب كل واحد منها... إلى عشرات ومئات من النقائض والاختلاف، الناشئة من طبيعة الإدراك البشري المحدود، ومن الجهل بما وراء اللحظة الحاضرة، فوق جهله بكل مكونات اللحظة الحاضرة، في أي لحظة حاضرة ! وعكس ذلك كله هو ما يتسم به المنهج القرآني الشامل المتكامل الثابت الأصول وثبات النواميس الكونية الذي يسمح بالحركة الدائمة مع ثباته، كما تسمح بها النواميس الكونية "...

ويضيف الأستاذ محمد قطب رحمه الله إلى ما سبق قائلا: " وتدبر هذه الظاهرة في آفاقها هذه قد لا يتسنى لكل إدراك ولا يتسنى لكل جيل، بل المؤكد أن كل إدراك سيتفاوت مع الآخر في إدراكها، وكل جيل سيأخذ بنصيبه في إدراكها ويدع آفاقا منها للأجيال المترقية، في جانب من جوانب المعرفة والتجربة.. إلا أنه يتبقى من وراء كل الاختلاف البشري الكثير في إدراك هذه الظاهرة، كاختلافاته الكثيرة في كل شيء. بقية يلتقي عليها كل إدراك، ويلتقي عليها كل جيل وهي أن هذه الصنعة شيء وصنعة البشر شيء آخر وأنه لا اختلاف في هذه الصنعة ولا تفاوت، وإنما وحدة وتناسق.. ثم يختلف الناس بعد ذلك ما يختلفون في إدراك آماد وآفاق وإبعاد وأنواع ذلك التناسق".

وإلى هذا القدر الذي لا يخطئه متدبر، حين يتدبر يكل الله تلك الطائفة كما يكل كل أحد وكل جماعة وكل جيل..و إلى هذا القدر من الإدراك المشترك يكل إليهم الحكم على هذا القرآن، وبناء

اعتقادهم في أنه من عند الله ولا يمكن أبدا أن يكون من عند غير الله جل علاه..

إن مثل هذه التوجيهات في القرآن الكريم يساء إدراكها وإدراك مداها، فيذهب بها جماعة من المفكرين الإسلاميين قديما وحديثا، إلى إعطاء الإدراك البشري سلطة الحكم النهائية في أمر الدين كله، ويجعلون منه ندا لشرع الله بل يجعلونه هو المسيطر على شرع الله تعالى.

الأمر ليس كذلك.. الأمر أن هذه الأداة العظيمة، أداة الإدراك البشري، هي بلا شك موضع التكريم من الله سبحانه، ومن ثم يكل إليها إدراك الحقيقة الأولى: حقيقة أن هذا الدين من عند الله، لأن هناك ظواهر يسهل إدراكها، وهي كاية بذاتها للدلالة، دلالة هذا الإدراك البشري ذاته، على أن هذا الدين من عند الله، لا من صنع البشر. ومتى أصبحت هذه القاعدة الكبيرة مسلَما بها أصبح من منطق هذا الإدراك ذاته أن يسلم، بعد ذلك تلقائيا بكل ما ورد في هذا الدين، ككل لا يتجزأ. لا يهم عندئذ أن يدرك حكمته الخفية أولا يدركها. فالحكمة متحققة حتما ما دام من عند الله، ولا يهم عندئذ أن يرى " المصلحة " متحققة فيه في اللحظة الحاضرة. فالمصلحة متحققة حتما ما دام من عند الله جل علاه.. والعقل البشري ليس ندا لشريعة الله، فضلا على أن يكون الحاكم عليها، لأنه لا يدرك إلا إدراكا ناقصا في المدى المحدود، ويستحيل كما قال الإمام الشهيد سيد قطب رحمه الله أن ينظر من جميع الزوايا إلى جميع

المصالح لا في اللحظة الواحدة ولا في التاريخ كله.. بينما شريعة الله تنظر هذه النظرة، فلا ينبغي أن يكون الحكم فيها أوفي حكم ثابت قطعي من أحكامها موكولا إلى الإدراك البشري... واقصى ما يتطلب من الإدراك البشري أن يتحرى إدراك دلالة النص وإنطباقه، لا أن يتحرى المصلحة أو عدم المصلحة فيه.. وقد اخطأ الذين زعموا باجتهادهم أنه يجب على الله تعالى فعل الصلاح والأصح، الصلاح كما يفهمونه بإدراكهم الناقص والأصلح الذي يعونه بعقولهم المحدودة، أرادوا أن يعللوا أفعال الله وهم بشر مخطئون..

وكيف ذلك؟ وهذا الذي جعل الإمام اللقاني رحمه اله يرد عليهم ردا زاجرا في جوهرته قائلا:

وقــــولهم إن الـــــصلاح واجــــب

علـــيه زور مــــا علــيه واجـــب

فالمصلحة متحققة أصلا بوجود النص من قِبل الله تعالى. إنما يكون هذا فيما لا نص فيه مما يجد من الأقضية.. وهذا يرد إلى الله ورسوله وهذا هو مجال الاجتهاد الحقيقي إلى جانب الاجتهاد في فهم النص والوقوف عنده، لا تحكيم العقل البشري في أن مدلوله يحمل المصلحة أو لا يحملها. يجب أن نحترم الإدراك البشري بالقدر الذي أراده الله له من التكريم في مجاله الذي يحسنه، ثم لا نتجاوز به هذا المجال إلى مقام التقديس، كي لا نمضي في التيه بلا دليل، كما تاه أهل الكتاب من قبل وأضلوا من بعد أقواما آخرين.

* اشتمال القرآن على أنباء غيبية:

ومن الدلائل على إعجازه وكونه وحيا إلهيا اشتماله على أنباء غيبية صدقتها الحوادث، وهذه النبوءات تشتمل على تأكيدات الله بأنه سينصر المسلمين على أعدائهم. ومما يدهش العقل ولا يمكن تعليله إلا بأنه وحي الإلهي وهو مجيء بعض هذه التأكيدات على حالة يخيل للناظر فيها عند نزولها أنه مبالغ فيها، من ذلك تبشير المؤمنين بأنهم سيخولون خلافة الله في الأرض.

قال تعالى في سورة النور: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (55).

إن حقيقة الاستخلاف في الأرض ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم، إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء، وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه، وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض، اللائق بخليفة أكرمها الله تعالى.

إن الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح لا على الهدم والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة لا على الظلم والقهر، وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري،

لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان..فأما الذين يملكون فيفسدون في الأرض وينشرون فيها البغي والجور وينحدرون إلى مدارج الحيوان المفترسة، فهؤلاء ليسوا مستخلفين في الأرض، إنما هم مبتلون بما هم فيه أو مبتلى بهم غيرهم، ممن يسلطون عليهم لحكمة يقدرها الله.

قال الربيع بن أنس عن أبي العالية رضي الله عنه في هذه الآية:
" كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمكة نحواً من عشر سنين يدعون إلى الله وحده، وإلى عبادته وحده بلا شريك له، سرا وهم خائفون لا يؤمرون بالقتال حتى أمروا بعد الهجرة إلى المدينة، فقدموها فأمرهم الله بالقتال فكانوا بها خائفين، يمسون في السلاح ويصبحون في السلاح، فصبروا على ذلك ما شاء الله، ثم إن رجلا من الصحابة قال: يا رسول الله أبد الدهر نحن خائفون هكذا؟ أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع عنا السلاح؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **لن تصبروا إلا يسيرا حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم ليست فيه حديدة** ".

وأنزل الله هذه الآية، فأظهر الله نبيه على جزيرة العرب فأمنوا ووضعوا السلاح ثم إن الله قبض نبيه صلى الله عليه وسلم، فكانوا كذلك آمنين في إمارة أبي بكر وعمر وعثمان حتى وقعوا فيما وقعوا فيه، فأدخل الله عليهم الخوف، فاتخذوا في الحجزة والشرط، وغيروا فغير بهم ".

لقد تحقق وعد الله مرة، وظل متحققا وواقعا ما قام المسلمون على شرط الله ووعد الله وعهده: " يعبدونني لا يشركون بي شيئا ".

لا من الآلهة ولا من الشهوات ويؤمنون من الإيمان ويعملون صالحا، ووعد الله مدخور لكل من يقوم على الشرط من هذه الأمة إلى يوم القيامة، إنما يبطئ النصر والاستخلاف والتمكين والأمن لتخلف شرط الله في جانب من جوانبه الفسيحة أو في تكليف من تكاليفه الضخمة حتى إذا انتفعت الأمة بالبلاء وجازت الابتلاء، وخافت فطلبت الأمن وذلت فطلبت العزة، وتخلفت فطلبت الاستخلاف، كل ذلك بوسائله التي أرادها الله لها وبشروطه التي قررها الله، ووعد الله يتحقق ولا يتخلف ولا تقف في طريقه قوة من قوى الأرض جميعا ولن تستطيع.

إن الإسلام حقيقة ضخمة لا بد أن يتأملها من يريد الوصول إلى حقيقة وعد الله في تلك الآيات. ولا بدّ أن يبحث عن مصداقها في تاريخ الحياة البشرية، وهو يدرك شروطها على حقيقتها، قبل أن يتشكك فيها أو يرتاب، أو يستبطئ وقوعها في حالة من الحالات.. فالعيب في المسلمين لا في الإسلام !!.

إنه ما من مرة سارت هذه الأمة على نهج الله، وحكمت هذا المنهج في الحياة وارتضته في كل أمورها إلا تحقق لها وعد الله بالاستخلاف والتمكين والأمن، وما من مرة خالفت عن هذا المنهج كما هي اليوم والأمس القريب، إلا تخلفت في ذيل القافلة وذلت، وطرد دينها من الهيمنة على البشرية واستبد بها الخوف وتخطفها الأعداء...

وقد أخبر القرآن الكريم من بين الغيبيات التي ظهرت من قبل وتظهر مع تطور الأزمان وحاجيات الناس، بغلبة الروم في بضع سنين

على الفرس المشركة. قال تعالى في سورة الروم: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦ ﴾ (الروم 1 – 6) ثم جاءت النبوة الصادقة كما أخبر القرآن الكريم وذلك تأييدا لدعوة التوحيد التي جاء بها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

لقد روى ابن جرير بإسناده، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: " كانت فارس ظاهرة على الروم، وكان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس، لأنهم أهل كتاب وهم أقرب إلى دينهم. فلما نزلت: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ ﴾ قالوا: يا أبا بكر إن صاحبك يقول: إن الروم تظهر على فارس في بضع سنين. قال صدق. قالوا: هل لك أن نقامرك (جاء ذلك قبل تحريم الرهان بوصفه من الميسر) فبايعوه على أربع قلائص إلى سبع سنين فمضت السبع ولم يكن شيء، ففرح المشركون بذلك فشق على المسلمين، فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما بضع سنين عندكم؟ قالوا دون العشرة قال: اذهب فزايدهم وازدد سنتين في الأجل. قال فما مضت السنتان حتى جاءت الركبان بظهور الروم على فارس. ففرح المؤمنون بذلك ".

ولهذا الحدث العظيم في تاريخ الديانات إيحاءات كثيرة منها:

(أولا) - ذلك الترابط بين الشرك والكفر في كل مكان وزمان أمام دعوة التوحيد والإيمان، ومع أن الدول قديما لم تكن شديدة الاتصال، والأمم لم تكن وثيقة الارتباط كما هو الشأن في عصرنا الحاضر. مع هذا فإن المشركين في مكة كانوا يحسون أن إنتصار المشركين في أي مكان على أهل الكتاب هو انتصار لهم، وكان المسلمون كذلك يحسون أن هناك ما يربطهم بأهل الكتاب، وكان يسؤهم أن ينتصر المشركون في أي مكان وكانوا يدركون أن دعوتهم وأن قضيتهم ليست في عزلة عما يجري في أنحاء العالم من حولهم، ويؤثر في قضية الكفر والإيمان... وهذه هي الحقيقة البارزة التي يغفل عنها الكثيرون من أهل زماننا، ولا ينتبهون إليها كما انتبه المسلمون والمشركون في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا. ومن ثمة ينحصرون داخل حدود جغرافية أو جنسية، ولا يدركون أن القضية في حقيقتها هي قضية الكفر والإيمان كما هي الحال اليوم بالنسبة لإخواننا في فلسطين ولبنان والعراق والسودان ومن قبل القريب في البسنة والهرسك وهنا وهناك، كانوا ولا زالوا يعانون من وسائل التعذيب والتقتيل الوحشية على أيدي النازية الجديدة الصهيونية بشتى أساليبها وبشتى أنواعها.

ومن وراء هذا الجدار أمم عظمى تجتمع على قرار وسرعان ما تلغيه. ألفاظها تندد بهذا الإجرام ضد الأبرياء وموقفها في الميدان مناقض أومناهض يؤيد الكفر على الإيمان ... فهذه الولايات المتحدة مثلا

تحرم صناعة الأسلحة الدفاعية ولو قلت فعاليتها على العراق، وتجيز من ناحية أخرى إسرائيل على كل عدوان وتؤيدها بالمال والعتاد ووسائل الدمار ثم ترفع عاليا شعار السلام في " المنطقة " ... وتريد أن ينظر العرب والمسلمون عامة إلى اليهود نظرة أخوة صادقة وهي التي تبدأ بهدم صرح السلم والسلام بمعاويل العنصريـــة الدينيـــة ... شأنها شأن منظمة الأمم المتحدة التي تقف خرساء عمياء وصماء أمام تلك الجرائم البشعة ضد المسلمين بلا تمييز أينما ثُقفوا وضد مقدساتهم وحرماتهم.. والمسلمون هنا وهناك يبكون قليلا على إخوانهم وسرعان ما ينسون ما عانوا هم أنفسهم من ويلات الإستدمار الغاشم فتراهم يندون تارة ويقدمون لهم بعض الإعانات تارة أخرى ولكنهم لا يغفلون أبدا عن إقامة شعائر وطنية يحتفلون بها في مناسبة من المناسبات وكأن الأمة الإسلامية تهنأ بعيش رغيد.

وما أحوج المسلمين اليوم في جميع بقاع الأرض أن يدركوا طبيعة المعركة وحقيقة القضية، فلا تلهيهم عنها تلك الأعلام الزائفة التي تتستر بها أحزاب الشرك والكفر... فإنهم لا يحاربون المسلمين في شتى بقاع العالم إلا على العقيدة، حقدا وحسدا من عند أنفسهم مهما تنوعت العلل والأسباب وكأن أجدادهم لم يشاهدوا قط سماحة المسلمين الأولين ولا عدالة الإسلام الحنيف إزاء الذين يخالفونهم في العقيدة، وكأنهم لم يعرفوا أن الإسلام قد ساهم بقسط كبير في بناء حضارتهم كما شهد بذلك أخيرا الأمير شارلز في إحدى محاضراته بجامعة أوكسفورد الإنكليزية ...

فعلى المسلمين عامة أن يدركو هذه الحقيقة وعلى إخواننا الأفغانيين خاصة الذين أوقعتهم أيدي الصهيونية العالمية وسذاجة عقولهم في جب العداوة والبغضاء، من أجل الوصول بأي ثمن إلى الحكم والسلطان، أن يجيبوا داعي الله ويلبوا قلبا وقالبا نداء رسول الله الكريم المبعوث " رحمة مهداة " نداءه الشهير: " **لا ترجعوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض** ". وليرجعوا كافة إلى رشدهم وإلى بناء وحدتهم ووطنهم ويحذروا أن يلدغوا مرة أخرى من جحر الأعداء.

(ثانيا) – تلك الثقة المطلقة في وعد الله سبحانه كما تبدو في قول سيدنا أبي بكر رضي الله عنه في غير تلعثم ولا تردد، والمشركون يعيبونه من قول صاحبه فما يزيد على أن يقول: صدق، ويراهنونه فيراهن وهو واثق ثم يتحقق وعد الله في الأجل الذي حدده " في بضع سنين ". وهذه الثقة، وما أحوجنا إليها اليوم أكثر من أي وقت مضى، هي عدة كل ذي عقيدة في الجهاد الشاق الطويل، وتظل كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

(ثالثا) – المسارعة برد الأمر كله لله:

" لله الأمر من قبل ومن بعد ". المسارعة في هذا الحادث وفي سواه. وتقرير هذه الحقيقة الكلية لتكون ميزان الموقف وميزان كل موقف. فالنصر والهزيمة وظهور الدول ودثورها، وضعفها وقوتها شأنه شأن سائر ما يقع في هذا الكون من أحداث ومن أحوال، مرده كله إلى الله تعالى، يصرفه كيف يشاء وفق حكمته ووفق مراده. وما الأحداث

وما الأحوال إلا أثاراً لهذه الإرادة الأزلية المطلقة التي ليس لأحد عليها من سلطان.. ولا يدري أحد ما وراءها من الحكمة، ولا يعرف مصادرها ومواردها إلا الله. وإذن فالتسليم والاستسلام هو أقصى مايملكه البشر أمام الأحوال والأحداث التي يجريها الله وفق قدر مرسوم.

والعقيدة الإسلامية واضحة ومنطقية في هذا المجال. فهي ترد الأمر كله لله ولكنها لا تعفي البشر من الأخذ بالأسباب الطبيعية التي من شأنها أن تظهر النتائج إلى عالم الشهادة والواقع. أما أن تتحقق تلك النتائج فعلا أو لا تتحقق، فليس داخلا في التكليف، لأن مرد ذلك في النهاية إلى تدبير الله تعالى. أخرج الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أعرابيا ترك ناقته طليقة على باب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل يصلي قائلا: " توكلت على الله ". فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **اعقلها وتوكل** ".

فالتوكل في العقيدة الإسلامية مقيد بالأخذ بالأسباب ورد الأمر بعد ذلك إلى الله العزيز العليم.

فالأخبار بالمغيبات لدليل واضح على صدق نبوة سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكون القرآن الكريم منزلا من عند الله إذ لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا هو جل علاه.. ومن الأنباء الغيبية التي أتى بها القرآن الأخبار عن قصص الأولين من الأنبياء بأبلغ كلام وبتناسق لا يعرف له مثيل.. فهذا إعجاز واضع، لأن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم لم يكن كاتبا ولا قارئا ولا

عرف عنه أن جلس إلى أحبار اليهود ورهبان النصارى ورغم ذلك جاءت قصص الأنبياء عليهم السلام في القرآن كقصص إبراهيم ويوسف وموسى وعيسى دليلا على أنه وحي يوحى. وعن ذلك يقول الله تعالى في سورة هود عليه السلام: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾ (49).

ومما يشهد للقرآن الكريم أنه وحي إلهي أن قصصه تخالف ما ورد في الكتب المقدسة السابقة وتسمو عليها، فإذا نظرنا إلى التوراة مثلا نراها تلصق ببعض الأنبياء أفعالا قبيحة لا يستسيغ العقل السليم صدورها من رجل لبيب فضلا عن أولئك الذين اصطفاهم ربهم لحضرته أرسلهم لهداية الخلق بوحيه، بينما القرآن يصفهم بالكمال وأحاسن الأعمال ويثني عليهم ويجعلهم قدوة صالحة لكل الأجيال.

فالقصص في القرآن لم يقصد بها تاريخ الرسول ولا تاريخ قومه وإنما المقصود بها ما في هذه القصص من دروس وعبر فيها هدي وعظات لكل داع إلى الحق ولكل مدعو إليه. وقد شهد بذلك الدكتور " فيليب حتي " في كتابه " تاريخ العرب " فقال: " ويقصد القرآن من عرض هذه القصص التوصل إلى عبرة أخلاقية، وما القصد الأسنى مجرد سرد حكاية، بل البلوغ بالقارئ والسامع معا إلى مغزى سام أو عظة أدبية مثلى كأن يعلن للناس أن الله في القديم كان يجازي المستقيم على إستقامته ويعاقب الشرير على شره ".

* روحانية القرآن دليل على إعجازه:

ونجد في القرآن دليلا على إعجازه وهو روحانيته التي جاء ذكرها حين خاطب الله رسوله الكريم سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم بقوله في سورة الشورى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ (52).

يعني أوحينا إليك قرآنا فيه حياة، يبث الحياة ويدفعها ويحركها وينميها في القلوب وفي الواقع العملي المشهود. " ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ".. وهكذا يصور نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم الكريمة وهو أعلم بها، قبل أن تتلقى هذا الوحي. وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكتاب وسمع عن الإيمان وكان معروفا في الجزيرة العربية أن هناك أهل كتاب فيمن معهم، وأن لهم عقيدة، فليس هذا هو المقصود. إنما المقصود هو إشتمال القلب على هذه الحقيقة والشعور بها والتأثر بوجودها في الضمير. وهذا مالم يكن قبل هذا الروح من أمر الله الذي لابس قلب سيد الوجود سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وطبيعة هذا الوحي أنه نور تخالط بشاشته القلوب التي يشاء الله أن تهتدي به بما يعلمه سبحانه من حقيقتها ومن مخالطة هذا النور لها. فلا النبي يهدي بنوره ولا الشيطان يغوي بحيلته فالكل من تأثير الله جل علاه، فلا شيء يؤثر بنفسه ولا ينفع بنفسه ولا يضر بنفسه فالكل من عند الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء لحكمة لا يعلمها إلا هو..

فهي الهداية إذا إلى طريق الله الذي تلتقي عنده المسالك لأنه الطريق إلى المالك الديان، الذي له ما في السماوات وما في الأرض. فالذي يهتدي بإذن الله إلى طريقه يهتدي على ناموس السماوات والأرض وقوى السماوات والأرض ويهتدي أيضا إلى رزق السماوات والأرض، وإتجاه السماوات والأرض إلى مالكها العظيم الذي إليه تتجه والذي إليه تصير الأمور. وهذا النور يهدي إلى طريق الله الذي اختار للعباد أن يسيروا فيه ليصيروا إليه في النهاية مهتدين طائعين.

هذه الروحانية إشتملت على العلوم الإلهية وأصول العقيدة الدينية وقوانين الفضائل والآداب، وقواعد التشريع السياسي والمدني والاجتماعي والاقتصادي والثقافي وغيرها من الأصول التي أتى بها القرآن الكريم وسيق بها كل الأوضاع البشرية التي من نوعها والتي يؤلف مجموعها الصرح الأدبي الفخم لهذه المدنية الحديثة.

ولا شك في أن هذا الوجه من أبرز وجوه إعجاز القرآن، فإن علوم العقائد الإلهية والآداب والتشريع الديني والمدني هي أعلى العلوم، وقلما ينبغ فيها من الذين ينقطعون لدراستها السنين الطوال إلا الأفراد القليلون، فكيف يستطيع رجل أمي لم يقرأ ولم يكتب ولا نشأ في بلدة علم وتشريع أن يأتي بمثل ما في القرآن منها تحقيقا وكمالا، كما قال الأستاذ عفيف عبد الفتاح طبارة في كتابه " **روح الدين الاسلامي** "، يؤيده بالحجج والبراهين بعد أن قضى ثلثي عمره لا يعرف شيئا منها ولم ينطق بقاعدة ولا أصل من أصولها، لأنه لم يوح إليه بالقرآن إلا بعد أن بلغ الأربعين من عمره.

ولهذه الحكمة الإلهية يأمر الله رسوله الكريم سيدنا محمدا صلى

الله عليه وسلم بمخاطبة العرب المتشككين برسالته: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (يونس / 16).

والوجه الأخير الذي سنذكره من وجوه إعجاز القرآن اشتماله على كثير من المعجزات العلمية التي لم تكن في عصر نزوله، ثم عرفت بعد ذلك بما انكشف للباحثين والمحققين في طبيعة الكون.

ب – عن بعض معجزات القرآن العلمية:

ليست مهمة القرآن الكريم أن يتحدث إلى عقول الناس عن مشكلات الكون وحقائق الوجود العلمية، وإنما هو كتاب هداية وإرشاد للناس في حياتهم الدينية والدنيوية. ولكن مع ذلك لم تَخل آياته من التعبيرات الدقيقة والإشارات الخفية إلى حقائق كثيرة في المسائل الطبيعية والطبية والجغرافية مما يدل على إعجاز القرآن وكونه وحيا من عند الله على قلب سيدنا محمد رسول الله المبعوث رحمة للعالمين.

4 - وحدة الكون وسر الحياة

قال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (30).. إنها جولة في الكون المعروض للأنظار وفيها ما يحي اللب حين يتأمله بالبصيرة المفتوحة والقلب الواعي والحس اليقظ.

إن هذه لمعجزة من معجزات القرآن التي يؤيدها العلم الحديث الذي يقرر أن الكون كان شيئا واحدا من غاز ثم انقسم إلى سدائم. فالنظرية القائمة اليوم هي أن المجموعات النجمية كالمجموعة الشمسية المؤلفة من الشمس وتوابعها منها الأرض والقمر كانت سديما ثم انفصلت وأخذت أشكالها الكروية، وأن الأرض كانت قطعة من الشمس ثم انفصلت عنها وبردت. فعالمنا الشمسي إذا كان نتيجة لتلك الإنقسامات. ومما يؤيد هذا القول أن العلماء استدلوا على أن في الشمس سبعا وستين عنصرا (67) من عناصر الأرض البالغة نحو اثنين وتسعين عنصرا (92).

وسيزيد المستدل عليه من العناصر في الشمس إذا ما ذللت الصعوبات التي تقوم في هذا الشأن. والعناصر الشهيرة في الشمس شهيرة بيننا نحن معشر أهل الأرض وهي: الهيدروجين والهليوم والكربون والآزوت والأكسجين. والفسفور والحديد إلخ... واستدل

العلماء على كل ذلك بالتحليل الطيفي وهو الذي يستدل به الكيماويون اليوم في معاملهم على ما تحتويه المواد الأرضية من عناصر يكشفون عن نوعها ومقدارها. والشمس نجم يتمثل فيه سائر النجوم، والنجوم هي الكون، وهذا يعني أن العناصر التي بني منها الكون على اختلافها عناصر واحدة...

وقد لاحظ العلماء من ناحية أخرى أن النيازك والصخور والأتربة القمرية التي حصل عليها العلماء من الفضاء الخارجي تحتوي من العناصر ما هو شائع في الأرض.. ونحن نستيقن هذه الحقيقة لمجرد ورودها في القرآن وإن كنا لا نعرف منه كيف كان فتق السماوات والأرض وانقسامهما أو فتق السماوات عن الأرض. ونتقبل النظريات الفلكية التي لا تخالف هذه الحقيقة المجملة التي قررها القرآن الكريم ولكننا كما قال الإمام سيد قطب رحمه الله لا نجري بالنص القرآني وراء أية نظرية فلكية، ولا نطلب تصديقا للقرآن في نظريات البشر، وهو حقيقة مستيقنة.

- وحقيقة علمية أخرى: " **وجعلنا من الماء كل شيء حي** " وهذا من أبلغ ما جاء في القرآن في تقرير حقيقة علمية أدرك العلماء سرها. فمعظم العمليات الكيماوية اللازمة للحياة والنمو تحتاج إلى الماء، وهو العنصر الأساسي لاستمرار الحياة لجميع الكائنات والنباتات، ومن هذه الكائنات هذا الإنسان الذي خلقه الله تعالى من حماء مسنون في صورة جبلة " بروتوبلازمية " من البروتين ثم تشكل منها بشرا سويا، وجعل أكثر مكوناته البدنية هذا الماء

المعين.. فالماء يدخل في تركيب جسم الإنسان والحيوان والنبات وبدونه يموت الإنسان ويهلك الحيوان والنبات وتتلاشى الحياة على وجه الأرض ويضمحل العمران.

يتكون عنصر الماء من جزئين من الهيدروجين وجزء من الأوكسجين كما يغطي الماء نحو 75 في المائة من سطح الكرة الأرضية. فالماء يساعد على سيولة الدم وكمذيب للطعام ويوجد بنسبة 70 % من الوزن الكلي في الخضروات، ويزيد في الفاكهة إلى 90 % من وزنها.

وللماء خواص أخرى تدل على أن مبدع الكون سبحانه وتعالى قد صممه بما يحقق صالح مخلوقاته. فالماء هو المادة الوحيدة التي تقل كثافتها ويزيد حجمها عندما تتجمد، ولهذه الخاصية أهميتها الكبيرة بالنسبة لحياة الأحياء المائية، إذ بسببها يطفو الجليد على سطح الماء عندما يشتد البرد بدلا من أن يغوص إلى قاع المحيطات والبحيرات والأنهار، ويكوِّن الثلج طبقة عازلة تحفظ الماء الذي تحتها في درجة حرارة فوق درجة التجمد.والماء يمتص كميات كبيرة من الأوكسجين عندما تكون درجة حرارته منخفضة، وعندما يتجمد الماء تنطلق منه كميات كبيرة من الحرارة تساعد على صيانة حياة الأحياء التي تعيش في البحار من أسماك وغيرها.

فما أعجب حكمة القرآن الذي يبين بكلمات قصيرة وجيزة سر الحياة على هذه الأرض بفضل حقيقة فطرية ثابتة لا تزول... هذه الحقيقة الكونية التي يعد بعض العلماء في عصرنا الحديث كشفها

وتقريرها أمرا عظيما ويمجدون " داروين " لأنه اهتدى إليها، يعني اهتدى إلى أن الماء هو مهد الحياة الأول.. ألم يعلم هؤلاء أن القرآن ذكرها منذ أكثر من أربعة عشر قرنا؟ ومن الذي أنار يا ترى سبيل البحث " لداروين " حتى وصل إلى هذه الحقيقة؟ ألم يكن العليم الخبير المدبر الحكيم؟ فهذه الحقيقة وإن كانت تثير الانتباه حقا فإن ورودها في القرآن لا يثير عجبا في نفوسنا ولا يزيدنا يقينا يصدق هذا القرآن. فنحن نستمد الاعتقاد بصدقه المطلق في كل ما يقرره من إيماننا بأنه من عند الله العزيز العليم، لا من موافقة النظريات أوالكشوف العلمية له التي قد تخطئ ويظهر عيبها مع تقدم من التجارب العلمية وقد تتناقض مع مرور الأجيال.. وأقصى ما يقال هنا إن نظرية النشؤ والإرتقاء " لداروين " وجماعته لا تعارض مفهوم النص القرآني في هذه النقطة بالذات.

- وعن نشأة هذا الكون الفسيح يقول جل وعلاه في أوائل سورة فصلت: ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝١٢ ﴾ (9 – 12).

يذكر القرآن حقيقة خلق الأرض في يومين، ثم يعقب عليها قبل عرض بقية قصة الأرض، والذي خلقها رب العالمين وأنتم تكفرون به وتجعلون له أنداد... سبحان الله وما هذه الأيام: الاثنان اللذان خلق فيهما الأرض والإثنان اللذان جعل فيهما الرواسي وقدر فيها الأقوات وأحل فيهما البركة، فتمت بهما الأيام الأربعة. إنها بلا شك أيام من أيام الله تعالى التي لا يعلم مداها إلا هو، وليست من أيام الأرض. فأيام هذه الأرض إنما هو مقياس زمني مستحدث بعد ميلاد الأرض. وكما للأرض أيام، هي مواعيد دورتها حول نفسها أمام الشمس، فللكواكب الأخرى أيام، وللنجوم أيام... وهي غير أيام الأرض، بعضها أقصر من أيام الأرض وبعضها أطول.

والأيام التي خلقت فيها الأرض أولا، ثم تكونت فيها الجبال وقدِّرت فيها الأقوات هي أيام أخرى مقيسة بمقياس آخر لا نعلمه ولا ندرك كنهه، نحن البشر... وأقرب ما نستطيع تصوره وفق ما وصل إلينا علمنا البشري أنها هي الأزمان التي مرت بها لأرض طورا بعد طور، حتى استقرت وصلبت قشرتها وأصبحت صالحة للحياة التي نعلمها، وهذه قد استغفرت فيما تقول النظريات العلمية التي بين أيدينا نحو ألفي مليون سنة من سنوات أرضنا.

وهذه مجرد تقديرات علمية مستندة إلى دراسة الصخور وتقدير عمر الأرض بواسطتها. ونحن في دراسة القرآن لا نلجأ إلى تلك التقديرات على أنها حقائق نهائية ولا يمكن لها أن تكون كذلك لأنها من صنع البشر المحدود الإدراك.. وما هي إذا إلا نظريات نرحب

بها أدل ولكنها تظل قابلة للتعديل.. فنحن لا نحمل القرآن عليها، إنما نجد أنها قد تكون صحيحة إذا رأينا بينها وبين النص القرآني تقاربا ووجدنا أنها تصلح تفسيرا للنص القرآني بغير تمحل، فنأخذ من هذا أن هذه النظرية أو تلك أقرب إلى الصحة لأنها أقرب إلى مدلول النص القرآني كما هو الحال بالنسبة للنظرية الداروينية السابقة، لا بالنسبة لتلك التي يزعم من خلالها أن الإنسان الذي فضله ربه على كثير من المخلوقات، هذا الإنسان الذي جعله سبحانه خليفته في الأرض وسخر له ما في السماوات وما في الأرض، هذا المخلوق المكرم قد إنحدر من القرد.. ويزعم أن القرد إرتقى في نوعه الحيواني إلى درجة أنه أصبح إنسانا بعقله وبملكاته. ونسي داروين أن أجناس كائنات الأرض أربعة، أعلاها الإنسان ثم الحيوان ثم النبات وأخيرا الجماد... فكل نوع قابل للرقي في نوعه وفي حدود جنسيته وجوهريته فلا يستطيع مهما كان رقيه، أن ينسلخ من أصله ويعلو عليه ويصبح مثلا نباتا بعدما كان جمادا أو حيوانا بعدما كان نباتا وأحرى أن يصبح إنسانا بعدما كان حيوانا، لا إدراك له ولا نور يعرف به ما ينفع وما يضر...

والراجح الآن في أقوال العلم أن الأرض كانت ملتهبة في حالة غازية كالشمس الآن والأرجح أنها قطعة من الشمس انفصلت عنها لسبب غير متفق على تقديره وأنها استقرت أزمانا طويلة حتى بردت قشرتها وصلبت وأن جوفها لا يزال في حالة انصهار ولشدة الحرارة حيث تنصهر أقسى الصخور. ولما بردت القشرة الأرضية جمدت

وصلبت وكانت في أول الأمر صخرية صلبة طبقات من الصخر بعضها فوق بعض.

وفي وقت مبكر جدا تكونت البحار من اتحاد الهيدروجين بنسبة 2 والأوكسجين بنسبة 1.

ومن اتحادهما وهما غازان سامان ينشأ الماء، والماء هو الحياة كما تقدم، فسبحان من يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي !!

والهواء والماء على أرضنا هذه، كما قال الدكتور أحمد زكي في كتابه " مع الله في السماء "، قد تعاونا على تفتيت الصخر وتشتيته، وحمله وترسيبه، حتى كانت من ذلك تربة أمكن فيها الزرع وتعاونا على نخر الجبال والنجاد وملء الوهاد، فلا تكاد تجد في شيء كان على الأرض أو هو كائن إلا أثر الهدم وأثر البناء.

إن هذه القشرة الأرضية في حركة دائمة وفي تغير دائم يهتز البحر بالموج فيؤثر فيها ويتبخر ماء البحر، تبخره الشمس، فيصعد إلى السماء فيكون سحبا تمطر الماء عذبا فينزل على الأرض متدفقا، فتكون السيول، وتكون الأنهار، تجري في هذه القشرة الأرضية فتؤثر فيها، تؤثر في صخره فتحله فتبدل فيه من صخر صخرا (أي تحوله إلى نوع آخر من الصخور) وهي من بعد ذلك تحمله وتنقله، ويتبدل وجه الأرض على القرون ومئات القرون وآلافها.. وتعمل الثلوج الجامدة بوجه الأرض ما يفعل الماء السائل، وتفعل الرياح بوجه الأرض ما يفعل الماء، وتفعل الشمس بوجه الأرض ما يفعله الماء

والريح، بما تطلق على هذا الوجه من نار ومن نور.. والأحياء على الأرض تغير من وجهها كذلك، ويغير فيها ما ينبثق فيها من جوف الأرض من براكين...

ونعود إلى الجبال فنجد القرآن الكريم يقول إنها " رواسي " وإنها كذلك ترسي الأرض فلا تميد. ولعلها تحفظ التناسق بين القيعان في المحيطات والمرتفعات في الأرض فتتوازن فلا تميد. ويقول الأستاذ أحمد زكي عن هذه الظاهرة: " إن كل حدث يحدث في الأرض في سطحها أو فيما دون سطحها يكون من أثره انتقال مادة من مكان إلى مكان يؤثر في سرعة دورانها. فليس المد والجزر هو العامل الوحيد في ذلك (أي في بطء سرعة الأرض) حتى ما تنقله الأنهار من مائها من ناحية في الأرض إلى ناحية يؤثر في سرعة الدوران، وما ينتقل من رياح يؤثر في سرعة الدوران، وسقوط في قاع البحار أوبروز في سطح الأرض هنا أو هناك يؤثر في سرعة الدوران، ومما يؤثر في سرعة هذا الدوران أن تتمدد الأرض أو تنكمش بسبب ما. ولو انكماشا أو تمددا طفيفا لا يزيد في قطرها أو ينقص منه إلا بضع أقدام ".

فهذه الأرض الحساسة إلى هذا الحد، لا عجب أن تكون الجبال رواسي حافضة لتوازنها ومانعة " أن تميد بكم " كما جاء في القرآن الكريم منذ مئات السنين.

ثم يقول سبحانه وتعالى عن منافع الأرض وأسرارها: ﴿ وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾. وقد كانت الفقرة تنقل إلى أذهان

أسلافنا صورة الزرع النامي في هذه الأرض وبعض ما خبأه الله تعالى في جوف الأرض من معادن نافعة كالذهب والفضة والحديد وما إليها.. فأما اليوم بعد ما كشف الله للإنسان أشياء كثيرة من بركته في الأرض ومن اقواتها التي خزنها فيها على أزمان طويلة فإن مدلول هذه الفقرة يتضاعف حقا في أذهاننا.

يقول الدكتور أحمد زكي معلقا على هذه البركات: " إن الأرض كرة تلفها قشرة من صخر وتلف أكثر الصخر طبقة من ماء، وتلف الصخر والماء جميعا طبقة من هواء. وهي طبقة من غاز سميكة كالبحر لها أعماق، ونحن بنى الإنسان والحيوان والنبات نعيش في هذه الأعماق هانئين بالذي فيها..فمن الهواء نستمد أنفاسنا من أوكسجينه، ومن الهواء يبني النبات جسمه، من كربونه بل من أكسيد كربونه، ذلك الذي يسميه الكيماويون ثاني أكسيد الكربون يبنى النبات جسمه من أكسيد الفحم هذا. ونحن نأكل النبات، ونأكل الحيوان الذي يأكل النبات، ومن كليهما نبني أجسامنا. بقي من غازات الهواء النتروجين أي الأزوت، فهذا لتخفيف الأوكسجين حتى لا نحترق بأنفاسنا، وبقي بخار الماء وهذا لترطيب الهواء، وبقيت طائفة من غازات أخرى توجد فيه بمقادير قليلة هي في غير ترتيب: الأرجون والهليوم والنيون وغيرها. ثم الهيدروجين وهذه تختلف على الأكثر، في الهواء من بقايا خلقه الأرض الأولى ".

والمواد التي نأكلها والتي ننتفع بها في حياتنا والأقوات أوسع مما يؤكل في البطون، كلها مركبات من العناصر الأصلية التي تحتويها

الأرض في جوفها أو في جوها سواء. وعلى سبيل المثال هذا السكر ما هو؟ إنه مركب من الكربون والهيدروجين والأكسجين، والماء علمنا تركيبه من الهيدروجين والأوكسجين (H_2O).. وهكذا كل ما نستخدمه من طعام أو شراب أو لباس أو أداة إن هو إلا مركب من بين عناصر هذه الأرض المودعة فيها. فكل هذا يشير إلى شيء من البركة وشيء من تقدير الأقوات" في أربعة أيام ". ويضيف القرآن حقيقة أخرى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ...﴾ الآية ". والاستواء هنا القصد كما قال الإمام سيد قطب رحمه الله، والقصد من جانب الله تعالى هو توجه الإرادة و" ثم " قد لا تكون للترتيب الزمني ولكن للارتقاء المعنوي والسماء في الحس أرفع وأرقى.

فهناك اعتقاد حسب النص القرآني أنه قبل خلق النجوم كان هناك ما يسمى السديم وهذا السديم غاز: دخان. والسدم، من نيرة ومعتمة، ليس الذي بها من غاز وغبار إلا ما تبقى من خلق النجوم. إن نظرية الخلق تقول: إن المجرة كانت من غاز وغبار ومن هذين تكونت بالتكثف النجوم، وبقيت لها بقية ومن هذه البقية كانت السدم. ولا يزال من هذه البقية منتشرا في هذه المجرة الواسعة مقدار من غاز وغبار، ويساوي ما تكون منه النجوم، ولا تزال النجوم تجر منه بالجاذبية إليها. فهي تكنس السماء منه كنسا كما قال الأستاذ أحمد زكي ولكن الكناسين برغم أعدادهم الهائلة قليلون بالنسبة لما يراد كنسه من ساحات أكبر وأشد هولا.

وهذا الكلام قد يكون صحيحا لأنه أقرب ما يكون إلى

مدلول الحقيقة القرآنية: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ...﴾ وإلى أن خلق السماوات تم في زمن طويل في يومين من أيام الله جل علاه.. ويقول الدكتور جامو (أستاذ الطبيعة النظرية بجامعة واشنطن):

" إن الكون في بدء نشأته كان مملوءاً بغاز موزع توزيعا منتظما. إنه غاز يبلغ من الكثافة ودرجة الحرارة حدا لا يمكن تصوره. وفي هذا الغاز حدثت عمليات التحول النووي في مختلف العناصر وتحت تأثير الضغط الهائل لهذا الغاز الساخن المضغوط بدأ الكون ينبسط ويتمدد، وأخذا كثافة المادة ودرجة حرارتها تهبطان في بطء، وفي مرحلة معينة من مراحل التمدد تكثف الغاز المنتشر إلى سحب مفردة غير منتظمة في شكلها ولا متساوية في أحجامها مكونة نجوما مفردة... ".

واللبيب الفطن يتساءل أمام هذه الحقائق، أيكون في قدرة رجل أمي منذ أكثر من أربعة عشر قرنا أن يدرك هذه الحقائق في وقت كان الناس لا يعرفون شيئا عن هذا الكون الفسيح وخفاياه؟ وهذا الكلام قد يكون صحيحا لأنه أقرب ما يكون إلى مدلول الحقيقة القرآنية ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾، وإلى أن خلق السماوات تمً في زمن طويل في يومين من أيام الله تعالى.. والسماوات والأرض قالتا " أتينا طائعين ".. إنها إيماءة عجيبة وإشارة لطيفة إلى إنقياد هذا الكون للناموس، وإلى اتصال حقيقة هذا الكون بخالقه اتصال الطاعة والاستسلام لكلمته ومشيئته.. فليس

هنالك إذن إلا هذا الإنسان الذي يخضع للناموس كرها في أغلب الأحيان. لا ينقاد طائعا طاعة الأرض والسماء، إنما يحاول أن ينفلت، وينحرف عن المجرى الهين اللين، فيصطدم بالنواميس التي لا بدّ أن تغلبه، وقد تحطمه وتسحقه، فيستسلم خاضعا غير طائع إلا عباد الله الذين تصطلح قلوبهم وكيانهم وحركاتهم وتصوراتهم وإرادتهم ورغباتهم واتجاهاتهم، تصطلح كلها مع النواميس الكلية، فتأتي طائعة وتسير هينة لينة مع عجلة الكون الهائلة، متجهة إلى ربها مع الموكب متصلة بكل ما فيه من قوى، وحينئذ تصنع الأعاجيب، وتأتي بالخوارق، لأنها مصطلحة مع الناموس، مستمدة من قوته الهائلة وهي منه وهو مشتمل عليها في الطريق إلى الله " **طائعين** ". إننا كما قال صاحب الظلال رحمه الله نخضع كرها، فليتنا نخضع طوعا، ليتنا نلبي تلبية الأرض والسماء في رضى وفي فرح باللقاء مع روح الوجود الخاضعة المطيعة الملبية المستسلمة لله رب العالمين.

واليومان في قوله تعالى ﴿ **فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا** ﴾ قد يكونان هما اللذان تكونت فيهما النجم من السدم (والسدم عبارة عن بقع في الكرة السماوية ضعيفة النور منها ما هو تجمع غازات مضيئة ومنها ما يضم العديد من الكواكب) أواليومان اللذان تم فيهما التكوين كما يعلمه سبحانه وتعالى.

والوحي بالأمر في كل سماء يشير إلى إطلاق النواميس العاملة فيها على هدي من الله وتوجيه. أما ما هي السماء المقصودة فالله

أعلم بمرادها. فقد تكون درجة البعد سماء، وقد تكون المجرة الواحدة سماء، وقد تكون المجرات التي على أبعاد متفاوتة سماوات، وقد يكون غير ذلك مما تحمله لفظة سماء وهو كثير...

والسماء الدنيا هي كذلك ليس لها مدلول واحد محدد، فقد تكون هي أقرب المجرات إلينا وهي المعروفة " بسكة التبان " والتي يبلغ قطرها مائة ألف مليون سنة ضوئية وقد يكون غيرها مما ينطبق عليه لفظ سماء، وفيه النجوم والكواكب المنيرة لنا كالمصابيح، وحفظا من كل شيطان رجيم.. وفي آية أخرى من سورة الأنعام يقول جل ذكره: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (97). ومتاهات البر والبحر ظلمات يهتدي فيها البشر بالنجوم.. كانوا كذلك وما يزالون.. تختلف وسائل الاهتداء بالنجوم ويتسع مداها بالكشوف العلمية والتجارب المتنوعة وتبقى القاعدة ثابتة: قاعدة الاهتداء بهذه الأجرام في ظلمات البر والبحر، سواء في ذلك الظلمات الحسية أو ظلمات التصور والفكر، ويبقى النص القرآني الجامع يخاطب البشرية في مدارجها الأولى بهذه الحقيقة، فتجد مصداقها في واقع حياتها الذي تزاوله. ويخاطبها بها وقد فتح عليها ما أراد أن يفتح من الأسرار في الأنفس والآفاق. فتجد كذلك مصداقا قوله تعالى في واقع حياتها الذي تزاوله..

والذين يستخدمون النجوم للاهتداء الحسي ثم لا يصلون ما بين دلالتها ومبدعها هم قوم لم يهتدوا بها تلك الهداية الكبرى وهم

الذين يقطعون بين الكون وخالقه وبين آيات هذا الكون ودلالتها على المبدع العظيم.

• ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾:

قـــال تعـــــالى في سورة الذاريات: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (47) هل هذه الآية تشرح وتصف سعة الكون أو هي تتوافق مع نظرية تمدد الكون؟ فمن الناحية الأولى نرى العالم الأمريكي " إينشتين " يتخيل سعة هذا الكون بأنه يتسع لبلايين من السدم وكل سديم منها يحتوي على مآت الملايين من النجوم الملتهبة. أما نظرية تمدد الكون فقد لاحظ علماء الفلك في أقصى ما يدركه المنظار، علامات تدل على حركات السدم الخارجية، حركات نظامية، واستدلوا منها على أن جميع السدم الخارجية أو "الجزر الكونية " تبدو على أنها تتباعد عن مجموعتنا الشمسية، بل إنها تتباعد عن بعضها البعض، وعلى هذا الأساس فإن الكون ليس ساكنا إنما يتمدد كما تتمدد فقاعة الصابون أو كما يتمدد البالون ولكن الأجسام المادية فيه تحافظ على أحجامها.

وقد تقدم عدد من العلماء الكونيين بنظريات تشرح لغز الكون المتمدد، منهم الدكتور" هابل " رائد الباحثين في السدم، فقد لاحظ أن هناك نزعة واحدة تسود هذه المجموعات النجمية الشاسعة البعد وهي أنها " أميل إلى الأدبار عنا منها إلى الإقبال كما لاحظ أن سرعة الإدبـــار تزيد بإزدياد أبعاد هذه الجزر الكونيـــة ".

يصرح القرآن الكريم في سورة " يس " بأن الشمس تجري بإتجاه معين وهذا ما يطابق العلم، فالشمس تتحرك مع مجموعاتها في إتجاه كوكب نير من مجموعة كوكب الجاثي.. وكل المجموعة الشمسية تخضع لقوة جاذبية الشمس التي تجعلها تدور حولها في مدارات أومسارات بيضاوية الشكل. ودوران الأرض حول نفسها يشير إليه القرآن بقوله: ﴿ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ ﴾ وهو الذي يسبب الليل والنهار... قال تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾ (يس / 37 – 40).

والتعبير القرآني عن هذه الظاهرة في هذا الموضع تعبير فريد. فهو يصور النهار متلبسا بالليل ثم ينزع الله النهار من الليل فإذا هم مظلمون. ولعلنا ندرك شيئا من سر هذا التعبير الفريد حين نتصور الأمر على حقيقته: فالأرض الكروية في دورتها حول نفسها في مواجهة الشمس تمر كل نقطة منها بالشمس، فإذا هذه النقطة نهار، حتى إذا دارت الأرض وانزوت تلك النقطة عن الشمس، إنسلخ منها النهار ولفها الظلام، وهكذا تتوالى هذه الظاهرة على كل نقطة بإنتظام وكأنما نور النهار ينزع أو يسلخ فيحل محله الظلام.

والشمس تدور حول نفسها. وكان المظنون أنها ثابتة في

موضعها الذي تدور فيه حول نفسها. ولكن عرف أخيرا أنها ليست مستقرة في مكانها إنما هي تجري، تجري فعلا كما صرح بذلك القرآن الكريم.. أجل فهي تجري في إتجاه واحد في الفضاء الكوني الهائل بسرعة حسبها الفلكيون بإثنى عشر ميلا في الثانية، والله ربها الخبير بها وبجريانها وبمصيرها، يقول إنها تجري لمستقر لها، فلام الجر هذا يفيد معنيين: يفيد معنى " في " المكانية والمراد بذلك أن الشمس تدور حول نفسها كما سبق، وتفيد معنى الغاية، وهذا المستقر الذي ستنتهي إليه الشمس لا يعلمه إلا هو سبحانه ولا يعلم موعده سواه. وحين نتصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف لحجم أرضنا هذه، وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجري في الفضاء، لا يسندها شيء، ندرك طرفا من صفة القدرة الأزلية التي تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم ﴿ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴾ .

ثم إن العباد يرون القمر في منازله تلك، يولد هلالا، ثم ينمو ليلة بعد ليلة حتى يستدير بدرا، ثم يأخذ في التناقص حتى يعود هلالا مقوسا كالعرجون القديم. والعرجون هو الفدق الذي يكون في البلح من النخلة. والذي يلاحظ القمر ليلة بعد ليلة يدرك أن القمر يبدو في بدايته وكأنه فيه نظارة وفتوة وفي النهاية يطلع وكأنما يغشاه سهوم ووجوم يكسوه شحوب وذبول، ذبول العرجون القديم، فليست مصادفة أن يعبر القرآن الكريم عنه هذا التعبير الموحي العجيب.

وأخيرا يقرر القرآن الكريم دقة النظام الكوني الذي يحكم هذه الأجرام الهائلة، ويرتب الظواهر الناشئة عن نظامها الموحد الدقيق:

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ .

ولكل نجم أو كوكب فلك أو مدار لا يتجاوزه في جريانه أودورانه. والمسافات بين النجوم والكواكب مسافات هائلة. فالمسافة بين أرضنا هذه وبين الشمس تقدر بنحو ثلاثة وتسعين مليون من الأميال. والقمر يبعد عن الأرض بنحو أربعين ومائتي ألف من الأميال. وهذه المسافات على بعدها ليست شيئا يذكر حين تقاس إلى بعد ما بين مجموعتنا الشمسية وأقرب نجم من نجوم السماء الأخرى إلينا. وهو يقدر بنحو أربع سنوات ضوئية، وسرعة الضوء كما تعلم، تقدر بستة وثمانين ومائة ألف من الأميال في الثانية الواحدة (أو ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية) أي فأقرب نجم إلينا يبعد عنا بنحو مائة وأربعة مليون ميليون ميل !!!

وقد قدر الله سبحانه وتعالى، خالق هذا الكون الفسيح أن تقوم هذه المسافات الهائلة بين مدارات النجوم والكواكب ووضع تصميم الكون على هذا النحو ليحفظه بعلمه القديم وقدرته الأزلية من التصادم والتصدع، حتى يأتي الأجل المعلوم. فالشمس التي تجري لمستقر لها لا ينبغي لها أن تدرك القمر، لأن القمر يدور حول نفسه ثم حولها وحول الأرض.. والليل لا يسبق النهار ولا يزحمه في طريقه لأن الدورة التي تجيء بالليل والنهار لا تختل أبدا فلا يسبق أحدهما الآخر أو يزحمه في الجريان.. ﴿ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ... وحركة

هذه الأجرام في الفضاء الهائل أشبه بحركة السفينة في الخضم الفسيح، فهي مع ضخامتها لا تزيد على أن تكون نقطا سابحة في ذلك الفضاء المرهوب...

• هل يوجد أحياء في السماء؟؟

هل هناك حياة في رحاب الكون كالتي نعرفها على سطح الأرض؟ سؤال قد شغل الفلكيين حديثا، ووصلوا في مداولاتهم إلى أنه لا يستبعد وجود أحياء في كواكب أخرى كما هو الحال في كوكبنا الأرضي. وقد ثبت من المباحث الحديثة في هذا الصدد أن على سطح المريخ وفي جود حرارة وماء وأوكسجين وهي الشروط الثلاثة اللازمة للحياة. وقد أيدت المباحث القائمة على التصوير الضوئي والأرصاد بالعين المجردة أن الأحوال اللازمة للحياة لا تختلف كثيرا في جو المريخ عنها في الأرض، وأن العلماء الأمريكيين والسوفيات لمتفقون على إمكانية وجود نوع من الحياة في المريخ، والمريخ كما هو معلوم أقرب السيارات من الشمس.

وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم نراه يشير بدون لبس أو إبهام إلى وجود أحياء آخرين غير الذين يعيشون في كوكبنا هذا كما جاء في قوله تعالى في سورة الشورى (29) ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾. والحياة في هذه الأرض وحدها، ودع عنك ما في السماوات من حياة أخرى لا ندركها، آية أخرى. وهي سر لم ينفذ إلى طبيعته أحد فضلا على التطلع إلى إنشائه، سر غامض لا يدري أحد من أين جاء. ولا كيف جاء ولا كيف يتلبس

بالأحياء ! وكل المحاولات التي بذلت للبحث عن مصدره أو طبيعته أغلقت دونها الستر والأبواب، وانحصرت البحوث كلها في تطور الأحياء، بعد وجود الحياة، وتنوعها ووظائفها. وحتى في هذا الحيز الضيق المنظور اختلفت الآراء والنظريات.. فأما ما وراء الستر فبقى سرا خافيا لا تمتد إليه عين ولا يصل إليه إدراك، إنه من أمر الله الذي لا يدركه سواه.

هذه الأحياء المبثوثة في كل مكان، فوق سطح الأرض وفي ثناياها، وفي أعماق البحر وفي أجواء الفضاء، ودع عنك تصور الأحياء الأخرى في السماء، هذه الأحياء المبثوثة التي لا يعلم الإنسان منها إلا النزر اليسير، ولا يدرك منها بوسائله المحدودة إلا القليل المشهور. هذه الأحياء التي تدب في السماوات والأرض يجمعها الله حين يشاء لا يضل منها فرد واحد ولا يغيب. وبنو الإنسان يعجزهم أن يجمعوا سربا من الطير الأليف ينفلت من أقفاصهم أو سربا من النحل يطير من خلية لهم، ﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ﴾ (الحج / 73).

وأسراب من الطير لا يعلم عددها إلا الله وأسراب من النحل والنمل وأخواتها لا يحصيها إلا الله، وأسراب من الحشرات والهوام والجراثيم لا يعلم مواطنها إلا الله، وأسراب من الأسماك وحيوان البحر لا يطلع عليها إلا الله، وقطعان من الأنعام والوحش سائمة وشاردة في كل مكان، وقطعان من البشر مبثوثة في الأرض في كل مكان ومعها خلائق أربى عددا وأخفى مكان في السماوات من خلق الله

كلها، كلها يجمعها الله سبحانه حين يشاء ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ ﴾.

ولا ندري هل يتمكن العلماء بوسائلهم المختلفة من الوصول إلى بعض الكواكب التي يرجح وجود أحياء فيها فيكون ذلك أكبر معجزة للقرآن الكريم، وبالرغم من ذلك يبقى الإنسان مرتبطا بأمه الأرض لأنه خلق من عناصرها ولا يحي إلا بها ولا يعيش إلا فيها ولا يتناسل إلا فيها لأن القدرة الأزلية شاءت أن تكون الأرض هي مقر هذا الإنسان الخليفة، والأرض وحدها.. وكيف يستطيع الإنسان ياترى أن يعيش ويتكاثر في كوكب آخر غير كوكبه وهو أن يصعد علوا شعر بضيق في صدره لنقص الأوكسجين هناك كما تبين ذلك الآية الكريمة في قوله تعلى من سورة الأنعام: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ ﴾ (125).

فمنذ إرتياد الطبقات الجوية العليا بفضل الطيران والبالونات إستطعنا أن ندرك ظاهرة طبيعية تنتج عن نقص أوكسجين الهواء في تلك الطبقات إذ يشعر الصاعد في هذا العلو ببعض الصعوبة في التنفس ويحس بالضيق. والآية القرآنية صرحت بأن من يرتفع في السماء يشعر بعوارض الضيق وقد لفتت هذه الظاهرة نظر هواة التسلق حتى قبل إرتياد الطبقات الجوية العليا، فضلا عن أن الآية الكريمة لم تعبر عن لفظ الصعود في " الجبال "، بل عبرت عن

الصعود في السماء، فإنسان القمر إذا معني لأول درجة بهذه الحقيقة فإنه لا يستطيع أن يتبحر في أبحاثه الفضائية ولا أن يسبح في أجواء السماء إلا بوسائل أرضية لأنه كما قلنا بشر، ومقر البشر الأرض.

• الزوجية في كل شيء:

من المعروف قديما أن الزوجية هي أساس في كيان المملكة الحيوانية والنباتية. يقول سبحانه في النبات: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝ ﴾ (الشعراء / 7) وفي الإنسان والحيوان يقول جل ذكره في سورة الشورى: ﴿ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝ ﴾ (11) ولكن القرآن لا يقتصر على هذا بل يطلق إسم الزوجية على كل شيء. قال جل علاه في سورة الذاريات: ﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝ ﴾ (49).

وهذه حقيقة عجيبة تكشف عن قاعدة الخلق في هذه الأرض وربما في هذا الكون إذ أن التعبير لا يخصص الأرض وحدها، قاعدة الزوجية في كل الخلق بلا استثناء وهي ظاهرة في كل شيء، في كل الأحياء وفي غير الأحياء، فالكل خاضع لهذه القاعدة الفطرية الباقية ببقاء الحياة على وجه الأرض.

وحين نتذكر أن هذا النص القرآني الشريف عرفه البشر منذ أربعة عشر قرنا وأن فكرة عموم الزوجية حتى في الأحياء لم تكن

معروفة حينذاك، فضلا عن عموم الزوجية في كل شيء، نجد أنفسنا أمام أمر عجيب عظيم وهو يطلعنا على الحقائق الكونية في هذه الصورة العجيبة المبكرة كل التبكير.

كما أن هذا النص القرآني يجعلنا نرجح أن البحوث العلمية الحديثة سائرة في طريق الوصول إلى هذه الحقيقة وهي تكاد تقرر أن بناء الكون كله يرجع إلى الذرة وأن الذرة مؤلفة مـــن زوج من الكهرباء: موجب وسالب. فقد تكون تلك البحوث إذن على طريق الحقيقة في ضوء هذا النص العجيب.

لا نقول أن الكهرباء التي أكتشفت بعد مجيء القرآن بقرون كثيرة تحتوي على سالب وموجب وبإتحادهما يتولد التيار الكهربائي، ولكن ننتقل إلى الذرة أصغر جزء في عنصر ما، فقد أكتشف العلماء بأن الذرة مؤلفة من قلب يدعى النواة تدور حولها كهيريات يختلف عددها بإختلاف الأجسام تدعى الإلكترونات تحمل شحنة كهربائية سالبة. أما النواة فتحمل شحنة كهربائية موجبة..

ولكن هناك أبعد من هذا فقد أستنتج رجال الطبيعة من تجارب أجروها في معاملهم أن النواة الذرية نفسها مؤلفة من أجزاء أصغر فوجدوا وحدتين أساسيتين من وحدات البناء في نواة الذرة: إحداهما نواة الهيدروجين وتدعى " البروتون " تقابلها وحدة البناء الثانية التي اكتشفها في عام 1932 م العالم الطبيعي الإنجليزي السير جيمس تشادويك وتسمى " النيوترون ".. وقد أشارت الآية الكريمة إلى هذه الحقيقة في سورة يونس (61) قال تعالى: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي

شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ ﴾ .

فكلمة " **أصغر** " من الذرة في الآية القرآنية تصريح جلي بإمكان تجزئتها.. وفي قوله تعالى " **ولا في السماء** " بيان بأن خواص الذرات التي في الأرض هي نفس خواص الذرات الموجودة في الشمس والنجوم والكواكب..

وهل درس سيد المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خواص الذرة وإمكان تجزئتها والوقوف على خواصها في الأرض.. كلا ! وكيف استطاع الوصول إلى هذه الحقائق وهو الأمي الأمين لولا أنه أوحي إليه بذلك من رب العالمين؟

• السحاب ركام والرياح لواقح:

قال تعالى في سورة النور: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ﴾ (43). فالشاهد في هذه الآية الكريمة هو قوله تعالى: " **ثم يؤلف بينه** " فالله جلَّت قدرته يزجي السحاب يعني يسوقه برفق وسهولة من هنا إلى هناك ثم يقرب بينه بحكمته وعلمه.

فقد كان الناس يمرون بهذه الكلمات فيرون مجازا من المجازات البلاغية، ولكنها في الواقع من أمهات الحقائق الكونية التي كشف أسرارها العلم الحديث، فإن التأليف بين السحاب ماهو إلا إشارة

واضحة بل وصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية. فالسحاب مكهرب من غير شك كما أثبت ذلك العالم الأمريكي " **فرنكلين** " لأول مرة في عام 1752، والمعروف أن نوعي الكهربائية يتجاذبان وأن الموجب مع الموجب أو السالب مع السالب يتنافران. هذا التنافر من شأنه تفريق السحاب ذي النوع الواحد لكن الله سبحانه يجمعه برغمه بواسطة الرياح وعندئذ تكبر السحابة، والرياح الصاعدة من الأرض تحمل شحنة كهربائية موجبة وبإتحادها مع الشحنة الكهربائية الموجودة في الفضاء يتكون مجال كهربائي بسبب تحول البخار إلى قطرات دقيقة من الماء تكبر شيئا فشيئا إلى أن تسقط مطرا.

فالعوامل المسببة للأمطار ومحورها إذا هي الكهربائية الجوية التي يجمع بينها الريح.. وقد أشار إليها الحق جل علاه بقوله: ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ (الحجر / 22) . يعني أرسلنا الرياح لواقح بالماء لا كما يظن البعض أنها تحمل اللقاح من شجرة إلى شجرة، لواقح كما تلقح الناقة بالنتاج، فأنزلنا من السماء ماء مباركا مما حملت الرياح، فأسقيناكمون فعشتم به.. فما من خزائنكم جاء، إنما جاء من خزائن الله ونزل منها بقدر معلوم..

• إهتزاز الأرض بالأمطار:

يذكر لنا القرآن الكريم حقيقة كونية أخرى في سورة الحج:

﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ ﴾ (5) والهمود درجة بين الحياة والموت، وهكذا تكون الأرض قبل الماء، وهو العنصر الأصيل في الحياة والأحياء فإذا نزل عليها الماء " إهتزت وربت " وهي حركة عجيبة سجلها القرآن قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بمئات الأعوام. فالتربة الجافة حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة إهتزاز وهي تنتشر بالماء وتنتفخ فتربو ثم تتفتح بالحياة عن النبات من كل " زوج بهيج ".

فقد دلت البحوث العلمية الحديثة أن للأرض مساما يتخللها الهواء وأن نزول الماء عليها يدفع الهواء ويحل محله، وعند إمتلاء مسام الأرض بالماء تتحرك جزئيات الطين بقوة دفع الماء في المسام. وعلوم الكيمياء أثبتت أن الطين يتمدد بالماء وينكمش بالجفاف. فالأرض عندما ينزل عليها الماء تتحرك وتزداد في الحجم وقد أمكن قياس حركة الأرض إذا ما أصابها الماء كما أمكن معرفة الزيادة في حجمها. وهل أبهج من الحياة وهي تنفتح بعد الكمون وتنتفض بعد الهمود؟؟

• توازن العناصر الكونية:

ليس في الكون من شيء ينزل جزافا وليس من شيء يتم إعتباطا. قال تعالى فـــي سورة الحجر: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝ ﴾ (21) إن مدلولة

كلمة " خزائنه " يتجلى في صورة أقرب بعدما كشف الإنسان طبيعة العناصر التي يتألف منها الكون المادي، وطبيعة تركيبها وتحليلها إلى حد ما، وعرف مثلا أن خزائن الماء الأساسية هي ذرات الهيدروجين والأوكسجين.

وأن من خزائن الرزق المتمثل في النبات الأخضر كله ذلك الآزوت الذي في الهواء، وذلك الكربون وذلك الأوكسيجين المركب في ثاني أكسيد الكربون، وتلك الأشعة التي ترسل بها الشمس أيضا، ومثل هذا كثير يوضح دلالة خزائن الله التي توصل الإنسان بسلطان الله إلى معرفة شيء منها وهو شيء على كثرته قليل وقليل !!

وفي سورة الرعد يقول جل ذكره ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ (8) نعم كل شيء في هذه الدنيا جعله الله بمقدار. إن نسبة الأوكسجين تجد عادة في الهواء بنسبة 21 %، فلو كان الأوكسجين بنسة 50 % مثلا فماذا يحدث؟ إن جميع المواد القابلة للإحتراق في العالم تصبح عرضة للإشتعال لدرجة أن أول شرارة من البرق تصيب شجرة لا بد أن تلهب الغابة.

والأوكسجين يمتصه كل كائن حيواني بينما يلفظ ثاني أوكسيد الكربون الذي يبني النبات تكوينه منه. فلو كانت هذه المقايضة غير قائمة فإن الحياة الحيوانية أو النباتية كانت تستنفذ في النهاية كل الأوكسجين أو كل ثاني أوكسيد الكربون وحينئذ يذوي النبات ويموت الحيوان.

ثم إن إشعاعات الشمس هي كذلك بمقدار، فلو أعطت

الشمس نصف إشعاعها الحالي لتجمدت المخلوقات ولو أنها زادته بمقدار النصف لأصبحت كلها رمادا.. وضياء الشمس هو الآخر بمقدار. فقد تبين أن له صلة وثيقة بنمو النباتات وتزهيرها إذ أن التزهير في حاجة ماسة إلى قدر معين من الإضاءة.. وعلماء الكون الأخصائيون في علوم الكيمياء والنبات أثبتوا أن العناصر التي يتكون منها النبات مؤلفة من مقادير معينة من كل نوع من أنواعه بدقة غريبة لا يمكن ضبطها إلا بأدق الموازين، وكذلك تختلف نسبة بعضها إلى بعض في كل نبات.. وهذه المسألة لم يكن يعرفها البشر قبل هذا العصر وأشار إليها القرآن في إعجازه في سورة الحجر: ﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ۝ ﴾ (19).

• الأمواج الداخلية والسطحية:

قال الله تعالى في سورة النور: ﴿ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝ ﴾ (40)، ففي هذه الآية الكريمة إشارة إلى الأمواج الداخلية والسطحية.

يقول الأستاذ كارسون في كتابه: **البحر المحيط بنا**: " فأضخم أمواج المحيط وأشدها رعبا هي أمواج غير منظورة تتحرك في خطوط سيرها الغامضة بعيدا في أعماق البحر، وقد كان من المعروف منذ

سنين كثيرة أن سفن البعثات إلى القطب الشمالي كانت تشق طريقها بكل صعوبة فيما كان يسمى " بالماء الميت " والذي عرف الآن أنه أمواج داخلية، وفي أوائل عام 1900 لفت الأنظار كثير من مساحي البحار الأسكندنافيين إلى وجود أمواج تحت سطح الماء. والآن بالرغم من أن الغموض لا يزال يكتنف أسباب تكوين هذه الأمواج العظيمة التي ترتفع وتهبط بعيدا أسفل سطح فإن حدوثها على نطاق واسع في المحيط قد أصبح أمرا معروفا جدا. فهي تقذف بالغواصات في المياه العميقة كما تعمل شقيقاتها السطحية على قذف السفن. ويظهر أن هذه الأمواج تتكسر عند التقائها بتيار الخليج وبتيارات أخرى قوية قي بحر عميق ".

فالآية القرآنية تقول: ﴿ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ ﴾ إشارة إلى الأمواج الداخلية والسطحية، ويؤيد هذا ما وصفه القرآن للبحر بأنه (لجي) أي كثير الماء عميقه، وفي هذا إشارة إلى المحيطات وليس إلى الشواطئ، والجدير بالذكر أن هذه المواضع يقل فيها وهج الشمس فما بالك باجتماع السحاب الذي تكثر فيه الظلمة ويصبح الواقع " **إذا أخرج يده لم يكد يراها** ".

والآية أيضا تشير إلى ظلمة الكفر المنقطعة عن نور الله الفائض في الكون، إنها ضلال لا يرى فيه القلب أقرب علامات الهدى، ومخافة لا أمن فيها ولا قرار.. ونور الله هدى في القلب وتفتح في البصيرة واتصال في الفطرة بنواميس الله في السماوات والأرض والتقاء بها على الله رب العالمين. فمن لم يتصل بهذا النور فهو في

ظلمة لا إنكشاف لها، وفي مخالفة لا أمن فيها وفي ضلالة لا رجعة منه، ونهاية العمل سراب ضائع يقود إلى الهلاك والعذاب، لأنه عمل بغير عقيدة وصلاح بغير إيمان. إن هدى الله هو الهدى وإن نور الله هو النور.. وما سواه خسران وغرور !!

• عالم الحيوان والطير شبيه بعالم الإنسان !!

حقيقة أخرى هائلة يقول عنها القرآن ببلاغته العجيبة: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الأنعام / 38). أجل، هي حقيقة، تستطيع ملاحظة أولئك الذين عاصروا نزول القرآن وحدها حينذاك أن تشهد بها، حقيقة تجمع الحيوان والطير والحشرات من حولهم في أمم، لها سماتها وخصائصها وتنظيماتها كذلك، وهي الحقيقة التي تتسع مساحة رؤيتها كلما تقدم علم البشر، ولكن علمهم لا يزيد شيئا على أصلها، وإلى جانبها الحقيقة الغيبية الموصولة لها وهي أحاطة علم الله اللدني بكل شيء وتدبير الله لكل شيء. يصف الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة جماعة الحيوان والطير بالأمم وأنها تشبهنا بعض الشبه وكأن لها عقلا تدبر به أمورها.

هذه الحقيقة إعترف بها العلم الحديث: فقد دل أن جماعات الحيوان يربط أحادها رباط إجتماعي وثيق العرى، وأن منها ما تعيش على صورة ممالك ذات نظم ثابتة كالنمل والنحل وغيرها، وأن لكل

جماعة منها لغة يتفاهم أحادها بها. بينما كان العلماء الأقدمون لا يعترفون للحيوان والطير بنوع من العقل والذكاء، فكانوا يحسبونها مجرد آلات حية تحس وتتألم ولكن لا تعقل، وكل ما يشاهد منها من آثار التفكير والتدبير يعتبرونه من ثمرات الإلهام والغريزة لا غير. بقي هذا الإعتقاد إلى عصور متأخرة. فكان الفيلسوف والرياضي الفرنسي " **ديكارت** " يرى أن الحيوان كالآلة المعقدة المجردة من الحياة العقلية فهو لا يفكر كما يفهم الناس بل يعبر في سلوكه عن الغرائز.

وقد اشتهر عنه هذا التعريف وتناقله الباحثون، ولم يعترف للحيوان بعقل وتفكير نسبيين إلا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، من ذلك ما أعلنه العالم الطبيعي الأنكليزي " **دروين** " خلال نظرية التطور في الأجناس الحية وقال: " **إن التفكير موجود في الحيوان ولكنه بدرجة أقل من الإنسان** ". ويبقى الإنسان هو المفضل على من سواه بصريح قوله تعالى في سورة الاسراء (70) ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾. فضلناهم بهذا الاستخلاف في ملك الأرض الطويل والعريض وبما ركب في فطرتهم من استعدادات تجعل المخلوق الإنساني فذاً بين الخلائق في ملك الله جل علاه. ومن التكريم أيضا أن يكون الإنسان قيما على نفسه، محتملا تبعة اتجاهه وعمله، فهذه هي الصفة الأولى التي بها كان الإنسان إنسانا، حرية الاتجاه وفردية التبعة وبها استخلف في دار العمل فمن العدل أن يلقى جزاء اتجاهه وثمرة عمله في دار الحساب

بخلاف ما سواه من حيوان وغيره.

* النشأة الانسانية وأطوارها:

يقول جل وعلا عن النشأة الإنسانية: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ۝١٤ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦ ﴾ (المؤمنون / 12 – 16).

وهذا النص المبارك يشير إلى أطوار النشأة الانسانية ولا يحددها. فيفيد أن الانسان مر بأطوار مسلسلة من الطين إلى الإنسان.. فالطين هو المصدر الأول أو الطور الأول والانسان هو الطور الأخير وهي حقيقة نعرفها من القرآن ولا نطلب لها مصداقا من النظريات العلمية التي تبحث عن نشأة الإنسان أو نشأة الأحياء.

إن القرآن يقرر هذه الحقيقة ليتخذها مجالا للتدبر في صنع الله الذي أتقن كل شيء ولتأمل النقلة البعيدة بين الطين وهذا الإنسان المتسلسل في نشأته من ذلك الطين ولا يتعرض لتفصيل هذا التسلسل لأنه لا يعنيه في أهدافه الكبيرة. وإذا أمعنا النظر في هذه الآيات وجدنا أنها ذلت بوضوح تام على مادل العلم عليه بعد ذلك من أن الإنسان خلق من طين. فإن النطفة في كل من الذكر والأنثى التي يتكون منها الجنين هي وليدة عملية التغذية التي يتغذى بها الإنسان

وأصل هذه التغذية ومنشؤها التراب.

والمراد بالنطفة في الآية هي مجموعة الخلايا الحية التي تصدر من الرجل وتعوم في السائل الموجود داخل رحم المرأة ثم تتسابق لتنال خلية الأنثى الواحدة. وأحد هذه الحيوانات المنوية الذي يصل أولا، يخرق بويضة الأنثى ويدخل فيها ويمتزج بها وهذه أول عملية تكوين الجنين.

ثم يخبر الله تعالى بأنه يصير علقة وهي مجموعة الخلايا التي تنقسم إليها البويضة بعد تلقيحها وقد نتأت على سطحها نتؤات تصلها بحائط الرحم. هذا وقد سميت علقة لأنها تعلق بجدار الرحم. تستقر في " **قرار مكين** " ثابتة في الرحم الغائرة بين عظام الحوض، المحمية بها من التأثر باهتزازات الجسم ومن كثير مما يصيب الظهر والبطن من لكمات وكدمات ورجّات وتأثرات.. على أن الجنين يصير بعد ذلك مضغة مستديرة ويبقى كذلك بضع أسابيع... وقد سماه الله مضغة لكثرة الشبه بينه وبين قطعة اللحم الممضوغة، وهي في الإصطلاح الطبي عبارة عن نمو العلقة وتنوع خلاياها وتميز أجزائها عن البعض الآخر. وهنا يبدأ طور التكوين وتظهر آثار العظام في المضغة، وبعد أن تتكون العظام يبدأ اللحم في التكوين بظهور العضلات وذلك بتنوع الخلايا التي تحيط بالعظام، وبينما تظهر العظام والعضلات تتكون بقية أعضاء الجسم، فسبحان العليم الخبير.

وفي قوله تعالى: " ثم أنشأناه خلقا آخر " معجزة دقيقة من

معجزات القرآن. فقد ثبت أن الجنين في بداية الشهر الثاني بعيد الشبه بالإنسان فهو أقرب في شكله إلى ضفدعة في دور التكوين، وفي خلال الشهر الثاني تطرأ على الجنين تغيرات تشريحية تنقله من طبقة الحيوانات المائية إلى الصورة الانسانية فهذا التحول هو إنشاؤه خلقا آخر...

وإن الناس ليقفون دهشين أمام ما يسمونه: " **بمعجزات العلم** " حين يصنع الإنسان جهازا يتبع طريقا خاصا في تحركه، دون تدخل مباشر من الإنسان.. فأين هذا من سير الجنين في مراحله تلك وأطواره وتحولاته وبين كل مرحلة ومرحلة فوارق هائلة في طبيعتها وتحولات كاملة في ماهيتها؟ غير أن البشر يمرون على هذه الخوارق مغمضي العيون، مغلقي القلوب، لأن طول الألفة أنساهم أمرها الخارق العجيب. وإن مجرد التفكر في أن الإنسان، هذا الكائن المعقد، كله ملخص وكامن بجميع خصائصه وسماته وشياته في تلك النقطة الصغيرة التي لا تراها العين المجردة، وأن تلك الخصائص والسمات كلها تنمو وتتفتح وتتحرك في مراحل التطور الجنيني حتى تبرز واضحة عندما ينشأ خلقا آخر فإذا هي ناطقة بارزة في الطفل مرة أخرى، وإذا كل طفل يحمل وراثته الخاصة فوق الوراثات البشرية العامة، هذه الوراثات التي كانت كامنة في تلك النطفة الصغيرة، أن مجرد التفكر في هذا الإبداع الرباني، في هذه الحقيقة التي تتكرر كل لحظة لكاف وحده أن يفتح مغاليق القلوب على ذلك التدبير العجيب الغريب.

إن الجنين الإنساني مزود بخصائص معينة هي التي تسلك به طريقه الإنساني فيما بعد وهو ينشأ خلقا آخر في آخر أطواره الجنينية بينما يقف الجنين الحيواني عند التطور الحيواني لأنه غير مزود بتلك الخصائص، ومن ثم فإنه لا يمكن أن يتجاوز الحيوان مرتبتة الحيوانية فيتطور إلى مرتبة الإنسان تطورا آليا كما تزعم النظريات المادية.. فهما نوعان مختلفان. إختلفا بتلك النفخة الالهية التي بها صارت سلاسة الطين إنسانا واختلفا بعد ذلك بتلك الخصائص المعينة الناشئة من تلك النفخة والتي ينشأ بها الجنين الإنسان " **خلقا آخر** ". وقد أشرنا إلى هذا التباين فيما سبق ورأينا أنه من الضروري أن نؤكد أن الإنسان والحيوان يتشابهان في التكوين الحيواني أجل، لكن يبقى الحيوان حيوانا في مكانه لا يتعداه ولن يستطيع، ويتحول الإنسان خلقا آخر قابلا لما هو مهيأ له من الكمال بواسطة خصائص مميزة وهبها له الله خالقه عز وجل عن تدبير مقصود لا عن طريق آلي من نوع الحيوان إلى نوع الإنسان.. " **فتبارك الله أحسن الخالقين** ".

* القرآن زاد هذه الدنيا حتى البعث الأكبر:

جاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، رسولا وخاتما للرسالات السماوية وخاتما للأنبياء الذين سبقوه، جاء إلى الناس كافة، إلى الثقلين، رحمة للعالمين، بشريعة خاتمة وناسخة لكل الشرائع السالفة وباقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

جاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم للناس كافة في فترة من أحرج

الفترات في تاريخ الأمم وبالذات بلاد الشرق والحجاز، وقد برع العرب في جاهليتهم بيانا وفصاحة فكان الإعجاز البياني للقرآني هو أهم ما يميزه. جاء القرآن الكريم ونزل آخر حديث السماء إلى الأرض ألقى به أمين السماء في قلب أمين الأرض حيث عم وانتشر في بقاع الأرض وأقطار الدنيا كافة. والقرآن هو زاد الدنيا فيما تبقى من عمر الوجود حتى البعث الأكبر، فكيف يواجه ويجابه إعجازه الأجيال القادمة والقرون اللاحقة، وكيف يتصدى لتحديات المرجفين الذين أصيبوا بسهم الحضارة الحقيقية كما تحدى السابقين وعطّل أدواتهم من التضليل والبهتان؟

وحقائق القرآن لم تأت جزافا ولم توضع عبثا، يقول جل ذكره في آواخر سورة المؤمنون: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾. ومن أجل ذلك كله كان لزاما على القرآن أن يقدم عطاءه على فترات ويقدر وعلى دفعات متتالية مستمرة وهو يدخر لكل قرن ما يعجزهم ويحبط مكائدهم حتى لا ينتهي عطاؤه مرة واحدة ويقف أمام الناس آخر الرحلة بلا عطاء على حد تعبير الأستاذ السيد الجميلي في كتابه " **الإعجاز الطبي في القرآن** " وهل يمكن للقرآن أن ينتهي به المشوار إلى طريق مسدود؟؟ وهل يمكن لعجائب القرآن ومعجزاته وأسراره وجواهره أن تنفذ؟ كلا ! أليس القرآن كلام الله القديم؟؟ بلى !

إن ما يطيق الإنسان تلقيه وتسجيله من علم الله ضئيل قليل، لأنه يمثل نسبة المحدود إلى غير المحدود. فليعلم الإنسان ما يعلم وليكشف من أسرار هذا الوجود ما يكشف، ولكن ليطامن من غروره العلمي، فسيظل أقصى ما يبلغه علمه أن يكون البحر مدادا في يده وسينفد البحر وكلمات الله لم تنفذ ولن تنفذ، ولو أمده الله ببحر مثله فسينتهي من بين يديه وكلمات الله ليست إلى نفاد. قال الله تعالى في أواخر سورة الكهف: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَـٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَـٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾.

إذن القرآن يدخر عطاءه ويعطي الأجيال منه بقدر وحكمة كل بما يتناسب وطاقته وتطوره وعدته من الحضارة وأسباب المدنية. والقرآن يخاطب كل زمان وكل مكان، لا يقتصر على حقبة ولا يكلم زمنا دون زمن كما لم يقتصر على بقعة دون بقعة ولا على قارة دون قارة، إنما هو إيحاء شامل وعام يخاطب العقل البشري أينما وكيفما وجد.

تكلم في الذرة ضاربا بها المثل في أنها أصغر الأشياء وزنا، والذرة التي لو ضوعفت عشرة ملايين مرة لما تجاوز طولها مليمترا واحدا.. وكيف بأجزائها الصغيرة. وتحدث أيضا عن إختراق الفضاء بقوله في سورة الإنشقاق (19): ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ ﴾ وحرم الميتة والدم ولحم الخنزير وسائر الخبائث ولم يكن آنذك لتحريمها تعليل أو لأمر إلا نادرا، لكن الطب الحديث أكتشفه وفكّ

إدغامه وجلا سره وأسفر عن غموضه. فالأسرار الدفينة والأشياء الغامضة التي نعجز عن تفسيرها قد تكون موضوعة لجيل ولأقوام آخرين، فهي ليست لنا أو نحن لسنا لها، وهي موضوعة قاصرة على من يفكون طلاسمها... وما نملك أمام هذا الإعجاز الباهر إلا أن نقتفي آثار الذين مدحهم الله بقوله: ﴿ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (آل عمران / 7) وهذا التصوير صحيح للراسخين في العلم. فما يتبجح وينكر إلا السطحيون الذين تخدعهم قشور العلم فيتوهمون أنهم أدركوا كل شيء، وأن مالم يدركوه لا وجود له، أو يفرضون إدراكهم على الحقائق، فلا يسمحون لها بالوجود إلا على الصورة التي أدركوها. ومن ثم يقابلون كلام الله المطلق بمقررات عقلية لهم، صاغتها عقولهم المحدودة، شأنهم شأن قارون الذي ظن أنه لا يغلب أبدا ولا يقهر بل ماله يكسبه مناعة من كل سوء ومن كل خطر ويمنحه خلودا مع الآبدين. فخسف به وبداره على رؤوس الأشهاد... وشأنهم أيضا شأن فرعون الذي ادعى الألوهية في الأرض واستعبد خلق الله وزعم أن الهدى والرشاد في رأيه وفي رأيه وحده فأغرقه الله في اليم وأتباعه وجعلهم عبرة لكل الأجيال، عبرة انتصار الحق وأهله على الباطل وشرذمته، مهما كثرت الفتن وتزاحمت الويلات.

والراسخون في العلم يطمئنون ابتداءاً إلى صدق ما يأتيهم من عند الله يطمئنون إليه بفطرتهم الصادقة الواصلة ثم لا يجدون من عقولهم شكا فيه كذلك لأنهم يدركون أن من العلم ألاّ يخوض العقل

فيما لا مجال فيه للعلم وفيما لا تؤهله وسائله وأدواته الإنسانية لعلمه.

هذا هو حال الراسخين في العلم مع ربهم يقولون ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ وهو الحال اللائق بالإيمان المنبثق من الطمأنينة لقول الله تعالى ووعده والثقة بكلمته وعهده والمعرفة برحمته وفضله، والإشفاق مع هذا من قضائه المحكم وقدره المغيب، والتقوى والحساسية واليقظة التي يفرضها الإيمان على قلوب أهله، فلا تغفل ولا تغتر ولا تنسى في ليل أو نهار. وهم بوحي أيمانهم يعرفون أنهم لا يقدرون على شيء إلا بفضل الله ورحمته وأنهم لا يملكون قلوبهم، فهي في يد الله، فيتجهون إليه بالدعاء أن يمدهم بالعون والنجاة.

عن سيدتنا عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يدعو: " يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك. قلت يارسول الله: ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء ". فقال: " **ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن إذا شاء أي يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه** ". ومتى استشعر القلب المؤمن وقع المشيئة على هذا النحو لم يكن أمامه إلا أن يلتصق بركن الله في حرارة وأن يتشبث بحماه في إصرار وأن يتجه إليه يناشده رحمته وفضله لاستبقاء الكنز الذي وهبه والعطاء الذي أولاه..

5 - رمضان شهر الجهاد والفتوحات

أ - فضل الجهاد في سبيل الله وفضل الأمة الإسلامية:

الجهاد في الإسلام ذروة سنامه وسياج مبادئه وطريق الحفاظ على بلاده المسلمين. فهو من مبادئ الإسلام العظمى، لأنه سبيل العزة والكرامة والسيادة لهذا كان فريضة محكمة وأمراً ماضيا إلى يوم القيامة. وما ترك قوم الجهاد إلا ذلوا وغُزوا في عقر دارهم وخذلهم الله وسلط عليهم شرار الناس أووأرذالهم. قال تعالى في آخر سورة الحج: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾.

فهو تكليف محفوف برحمة الله. وهذا الدين كله بتكاليفه وعباداته وشرائعه ملحوظ فيه فطرة الإنسان وطاقته، ملحوظ فيه تلبية تلك الفطرة، وإطلاق هذه الطاقة والاتجاه إلى البناء والاستعلاء، فلا

تبقى حبيسة كالبخار المكتوم، ولا تنطلق انطلاق الحيوان الغشيم.
وهو منهج عريق أصيل في ماضي البشرية، موصول الماضي بالحاضر

" **ملة أبيكم إبراهيم** " ولم تفصل بينها فجوات مضيعة لمعالم العقيدة كالفجوات التي كانت بين الرسالات السالفة قبل سيدنا ابراهيم خليل الله عليه السلام. وقد سمى الله هذه الأمة الموحدة بالمسلمين، سماها كذلك من قبل وسماها كذلك في القرآن المجيد.

والإسلام هو إسلام الوجه والقلب لله وحده بلا شريك. فكانت الأمة المسلمة ذات منهج واحد على تتابع الأجيال والرسل والرسالات. حتى انتهى بها المطاف إلى أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وحتى سلمت إليها الأمانة، وعُهد إليها بالوصاية على البشرية فاتصل ماضيها بحاضرها وبمستقبلها كما أرادها الله تعالى أن تحضى بالقوامة على البشرية بموازين شريعتها وتربيتها وفكرها عن الكون والحياة وذلك بعد شهادة نبيها الكريم عليها الذي حدد لها نهجها واتجاهها ويقرر صوابها وخطأها. ولن تكون كذلك إلا وهي أمينة على منهجها العريق المتصل الوشائج المختار من الله جل علاه.

ولقد ظلت هذه الأمة وصية على البشرية طالما استمسكت بذلك المنهج الإلهي وطبَّقته في حياتها الواقعية، حتى إذا انحرفت عنه وتخلت عن تكاليفه ردها الله عن مكانة القيادة إلى مكان التابع في ذيل القافلة وما تزال، ولن تزال حتى تعود إلى هذا الأمر الذي اجتباها له الله تعالى.. وهذا الأمر يقتضي الاحتشاد له والاستعداد.

ومن ثم يأمرهم القرآن بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والاعتصام

بالله لأن الصلاة صلة الفرد الضعيف الفاني بمصدر القوة والزاد، والزكاة صلة الجماعة بعضها ببعض والتأمين من الحاجة والفساد، والاعتصام بالله هو العروة الوثقى التي لا تنفصم بين المعبود والعباد...

بهذه العدة تملك الأمة المسلمة أن تنهض بتكاليف الوصاية على البشرية وتملك الانتفاع بالموارد والطاقات المادية التي تعارف الناس على أنها مصادر القوة في الأرض، والقرآن الكريم لا يقلل من شأنها، بل يدعو إلى إعدادها بقوله في سورة الأنفال: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ (60) وفي سورة النساء (102): ﴿ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾ . ولكن مع حشد القوى والطاقات والزاد الذي لا ينفد، زاد العقيدة الراسخة وزاد الأخوة في الله الصادقة..

وقد وردت أحاديث نبوية كثيرة تبين فضل الجهاد وأنه أفضل الأعمال عند الله تعالى. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أي الأعمال أفضل؟ قال: " **إيمان بالله ورسوله**"، قيل ثم ماذا؟ قال: " **الجهاد في سبيل الله**". قيل ثم ماذا؟ قال: " **حج مبرور** " (أخرجه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن خزيمة). وفي حديث أخرجه الشيخان وغيرهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال النبي صلى الله عليه وسلم: " **لغدوة أو**

روحة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها ".

والمجاهد الذي يجود أو يضحي بنفسه في سبيل الله، سبيل الجماعة والقيم العليا، يتمتع بالخلود والرفعة والمكانة في تاريخ البشرية وعند الله تعالى حيث يجعله في مصاف الأنبياء والمرسلين. قال جل علاه في سورة آل عمران: ﴿ **وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾** ﴾ (169 – 170). ولقد تمنى الرسول الكريم بجلال قدره وعظيم شرفه ورفعته عند الله وعند خلقه، أن يحوز درجة الشهادة في سبيل الله فقال عليه الصلاة والسلام في حديث أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه: " **والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل** ". وفي حديث أخرجه الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " **يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدَّيْن** ". بل أن الشهيد نفسه يتمنى العودة إلى دار الدنيا. فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وأن له ما على الأرض من شيء إلا الشهيد فإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة** ".

وقد عقد الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم مقارنة دقيقة بين قتلى

الحرب فقال في حديث صحيح: " القتلى ثلاثة رجال: رجل جاهد بنفسه وماله في سبيل الله حتى إذا لقي العدو وقاتلهم حتى يقتل، ذلك الشهيد الممتحن، في خيمة الله تحت عرشه، لا يفضله النبيون إلا بدرجة النبوة، ورجل مؤمن قرف على نفسه من الخطايا، جاهد بنفسه وماله في سبيل الله، حتى إذا لقي العدو قاتل حتى يقتل، فتلك مصممة محت ذنوبه وخطاياه، أن السيف محاء للخطايا وأدخل من أي أبواب الجنة شاء، فإن لها ثمانية أبواب ولجهنم سبعة أبواب وبعضها أسفل من بعض، ورجل منافق جاهد بنفسه وماله في سبيل الله حتى إذا لقي العدو قاتل حتى قتل، فذلك في النار، إن السيف لا يمحو النفاق ".

وقد فهم سلفنا الصالح هذه الحقائق فهما ذوقيا بحالهم وسلوكهم فراحوا ينشرون المحبة والسلام والعدالة والمساواة عبر أنحاء المعمورة، وتاريخ أمجادنا يسجل لهم مزايا عظيمة ومواقف جسيمة وانتصارات عديدة كان قد وقع جلها في شهر رمضان المبارك.

ولقد أدركوا رضوان الله عليهم وعلموا علم اليقين أن شعار الصوم هو القوة والجهاد والعمل، لا الضعف والاستكانة والهروب والفتور والكسل، كما يفهم اليوم لدى الكثير من أبنائنا..

فالمسلم يتفاعل مع واقع الحياة، ويتكيف مع الظروف، فلا يثنيه واجب ديني عن واجب معيشي أوحياتي، ولا تحد من عزيمته وهمته أهواء الدنيا ومغريات الطعام والشراب ولا يصح لمسلم أن يقول إن الصوم يعطل الأعمال ويؤخر المجتمعات. فسبيل الإسلام

معروف وهو الجهاد. ودين الله وشرعه يسر لا عسر، فقد أباح الفطر وأوجبه في السفر والحرب وحكم على الذين صاموا أنهم متنطعون متشددون وأن المفطرين في الجهاد قد ذهبوا بالأجر كله كما بين النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في فتح مكة المكرمة، حيث كان هو بنفسه أول المفطرين.. فالخير في الامتثال والاتباع لا في الابتداع.. وإلى هذا ينبهنا الإمام اللقاني رحمه الله في جوهرته قائلا:

وكل خير في اتباع من سلف   وكل شر في ابتداع من خلف

ب - أهم الأحداث التاريخية الواقعة في شهر رمضان:

هذه الأحداث الآتية، أحداث كبرى وقعت كلها في شهر رمضان المبارك ونكتفي بذكر أشهرها وبإختصار شديد:

• معركة بدر الكبرى:

وهي يوم الفرقان الذي فرق الله فيه بين الحق والباطل، فأنتصر فيه الاسلام، رمز القيم العليا في التوحيد والتفكير والحياة السوية والأخلاق الصحيحة. واندحر الشرك والوثنية رمز الانحدار والتخلف والتعقيد وإهدار الكرامة الانسانية. وقد حدثت هذه الغزوة المباركة في يوم الجمعة في السابع عشر من رمضان المعظم من السنة الثانية للهجرة. قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (123).

والنصر في بدر كان فيه رائحة المعجزة.. فقد تم بغير أداة من

الأدوات المادية المألوفة للنصر. لم تكن الكفتان فيها، بين المؤمنين والمشركين متوازنتين ولا قريبتين من التوازن. كان المشركون حوالي ألف خرجوا نفيرا لاستغاثة أبي سفيان، لحماية القافلة التي كانت معه، مزودين بالعدة والعدد، والحرص على الأموال والحمية للكرامة. وكان المسلمون حوالي ثلاثمائة لم يخرجوا لقتال هذه الطائفة " **ذات الشوكة** " على حد تعبير القرآن، إنما خرجوا لرحلة هينة لمقابلة القافلة العزلاء وأخذ الطريق عليها.. فلم يكن معهم على قلة العدد، إلا القليل من العدة. وكان وراءهم في المدينة مشركون لا تزال لهم قوتهم، منافقون لهم مكانتهم، ويهود يتربصون بهم. وكانوا هم بعد ذلك كله قلة مسلمة في وسط خضم من الكفار والشرك في الجزيرة. ولم تكن قد زالت عنهم بعد صفة أنهم مهاجرون من مكة.. وأنصار آووا هؤلاء المهاجرين ولكنهم ما يزالون نبتة غير مستقرة في هذه البيئة.

إن الله هو الذي نصرهم، نعم، نصرهم لحكمة نص عليها في مجموعة من الآيات القرآنية وهم لا ناصر لهم من أنفسهم ولا من سواهم.. والله سبحانه وتعالى يعلمهم أن مرد الأمر كله إليه وأن الفاعلية كلها منه جل وعلا وأن نزول الملائكة لمحاربة المشركين ما هو إلا بشرى لقلوبهم لتأنس بهذا وتستبشر وتطمئن به وتثبت. أما النصر فمنه سبحانه مباشرة ومتعلق بِقدَره وإرادته بلا واسطة ولا سبب ولا وسيلة.. وقد عرف الصحابة الكرام وأتباعهم من بعدهم أن الله هو الفاعل وحده، وعرفوا أنهم مأمورون من قبل الله باتخاذ الوسائل والأسباب، وبذل الجهد والوفاء بالتكاليف فاستيقنوا الحقيقة

وأطاعوا الأمر.. فأصبحوا سادة يخرجون الناس من الظلمات إلى النور، سادة خضعت لهم رقاب كل الجبابرة والطغاة، وأذاقوا العباد والبلاد المحبة والسلام.. ويبقى للأمة الاسلامية الآن أن تعرف كما عرف هؤلاء الأمجاد...

• فتح مكة المكرمة في العشرين من رمضان:

إن فتح مكة الذي كان بعد صلح الحديبية هو في الحقيقة واقعة رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه الشريف، الرؤيا التي يقول عنها الحق جل علاه في أواخر سورة الفتح: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (27) . فأما البشرى الأولى بشرى تصديق رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخولهم المسجد الحرام آمنين، وتحليقهم وتقصيرهم بعد انتهاء شعائر الحج أو العمرة، لا يخافون، فأما هذه فقد تحققت بعد عام واحد ثم تحققت بصورة أكبر وأجلى بعد عامين اثنين من صلح الحديبية إذ تم لهم فتح مكة المكرمة وغلبة دين الله عليها.

ولقد ذكرت الروايات حول قصة تحقيق هذا الوعد: أنه لما كان ذو القعدة من سنة سبع (أي العام التالي لصلح الحديبية) خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة معتمرا هو وأهل الحديبية فأحرم من ذي الحليفة، وساق معه الهدى كما أحرم وساق الهدى في

العام قبله وسار أصحابه يلبون. فلما كان صلى الله عليه وسلم قريبا من مر الظهران بعث محمد بن مسلمة بالخيل والسلاح أمامه. فلما رآه المشركون رعبوا رعبا شديدا، وظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزوهم. وأنه قد نكث العهد الذي بينهم وبينه من وضع القتال عشر سنين. فذهبوا فأخبروا أهل مكة، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزل بمر الظهران حيث ينظر إلى أنصاب الحرم، بعث السلاح من القسي والنبل والرماح إلى بطن ياجج وسار إلى مكة بالسيوف مغمدة في قربها كما شارطهم عليه. فلما كان في أثناء الطريق بعثت قريش مكرز بن حفض فقال: " يا محمد، ما عرفناك تنقض العهد ". فقال صلى الله عليه وسلم: " **وما ذاك**"؟ قال: " دخلت علينا بالسلاح والقسي والرماح ". فقال صلى الله عليه وسلم: " **لم يكن ذلك** ". وقد بعثنا به إلى ياجج . فقال: " **بهذا عرفناك، بالبر والوفاء** ". وخرجت رؤوس الكفار من مكة لئلا ينظروا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أصحابه رضي الله عنهم، غيظا وحنقا. وأما بقية أهل مكة من الرجال والنساء والولدان فجلسوا في الطرق وعلى البيوت ينظرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فدخلها صلى الله عليه وسلم وبين يديه أصحابه الكرام يلبون، والهدى قد بعثه إلى ذي طوى، وهو راكب على ناقته القصوى التي كان يركبها يوم الحديبية، وعبد الله بن رواحة الأنصاري آخذ بزمام الناقة يقودها. دخلها بعشرة آلاف مقاتل خاشعا لله متواضعا لربه شاكرا له نعمته ثم عفا مطلقا عن كل

أولئك الذين قاتلوه وأخرجوه من أعز البقاع عنده. وهكذا صدقت رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتحقق وعد الله. ثم كان الفتح في العام الذي يليه وظهر دين الله في مكة... ثم ظهر في الجزيرة العربية كلها بعد، ثم تحقق وعد الله وبشراه الأخيرة.

حيث يقول تعالى عنها: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ ﴾ (الفتح: 28).

فلقد ظهر دين الحق لا في الجزيرة وحدها بل ظهر في المعمورة من الأرض كلها قبل مضي نصف قرن من الزمان. ظهر في امبراطورية كِسرى كلها وفي قسم كبير من إمبراطورية قيصر الروم، وظهر في الهند وفي الصين ثم في جنوب آسيا في الملايو وفي جزر الهند الشرقية (أندونيسيا). وكان هذا هو معظم المعمورة من الأرض في القرن السادس ومنتصف القرن السابع الميلادي.

• بعض أحداث غزوة تبوك في رمضان سنة 09 للهجرة:

وسبب غزوة تبوك على مارواه ابن سعد في طبقاته وغيره أنه بلغ المسلمين من الأنباط الذين كانوا يتنقلون بين الشام والمدينة للتجارة أن الروم قد جمعت جموعا وأجلبت إلى جانبها لخم وجذام وغيرهم من نصارى العرب الذين كانوا تحت إمرة الروم. ووصلت طلائعهم إلى أرض البلقاء. فندب النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلى

الخروج وكان ذلك في رجب من السنة التاسعة. وروى الطبراني من حديث ابن حصين أن جيش الروم كان قوامه أربعين ألف مقاتل. وروى الامام أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما كانت عزوة تبوك أصاب الناس مجاعة فقالوا يارسول الله لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا فأكلنا وادهنا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: " **افعلوا** ". فجاء عمر فقال يارسول الله " إنهم إن فعلوا قل الظهر ولكن ادعهم بفضل أزوادهم ثم أدع لهم بالبركة لعل الله أن يجعل فيه ذلك ". فدعا عليه الصلاة والسلام بنطع فبسطه، ثم نداهم بفضل أزوادهم فجعل الرجل يجيء بكف الذرة والأخر بكف التمر والأخر بالكسرة حتى اجتمع على النطع من ذلك شيء يسير. ثم دعا عليه بالبركة ثم قال لهم: " **خذوا في أوعيتكم** " قال فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا من المعسكر وعاء إلا ملؤوه وأكلوا حتى شبعوا، وفضلت منه فضلة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فتحجب عنه الجنة ".

ولما انتهوا إلى تبوك لم يجدوا هناك كيدا ولا قتالا. فقد اختفى وتفرق أولئك الذين كانوا قد تجمعوا للقتال ثم أتاه " **يوحنه** " حاكم " **أيلة** " فصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجزية وأتاه أهل جرباء وأذرح فأعطوه أيضا الجزية وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك لهم كتابا. ومر الجيش مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر (وهي منازل ثمود) فقال

لأصحابه: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين ". ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي. ثم أن النبي صلى الله عليه وسلم قفل راجعا إلى المدينة فلما أشرفوا على المدينة قال عليه الصلاة والسلام لأصحابه: " **هذه طابة وهذا أحد، جبل يحبنا ونحبه** " وقال لأصحابه: " **إن بالمدينة أقواما ما سرتم مسيرا ولا قطعتم واديا إلا كانوا معكم** " قالو: يارسول الله وهم بالمدينة قال: " **وهم بالمدينة حبسهم العذر** ".. وقدم عليه الصلاة والسلام المدينة في شهر رمضان من السنة نفسها، ويكون قد غاب قرابة شهرين والله أعلم.

وكان المتخلفون لسوء نياتهم من أهل المدينة نيفا وثمانين رجلا.. وأما أولئك الثلاثة الذين تخلفوا عن هذه الغزوة، فقد كانوا صالحين، وما وقع منهم إلا باجتهاد من عند أنفسهم.. ولذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كلامهم مدة خمسين يوما زجرا لهم ثم نزلت توبتهم في سورة التوبة قال الله تعالى:

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ (118).

وقد بذل جيش العسرة في هذه الغزوة العسيرة المضنية المال والجهد وضحوا بالراحلة في أجمل فرصها واستبدلوا به العذاب في أقسى صوره وأشكاله. ولقد برهنوا بذلك على صدق إيمانهم بالله ومحبتهم

له فحق لهم النصر والتأييد وأن يكفيهم الله القتال برعب من لدنه يقذفه في قلوب أعدائهم فيتفرقون عنهم ويخضعون لحكم الله فيهم.. كما قال الأستاذ الفاضل الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي في " **فقه السيرة** " معلقا على هذا الحدث العظيم. وهكذا فقد كان يسر خضوع الروم لحكم الجزية وقيودها في مقابل العسر الذي تحمله المسلمون مع رسولهم صلى الله عليه وسلم مرضاة ربهم جل جلاله.

● وأحداث أخرى في رمضان:

- انتشار الإسلام في اليمن في رمضان من السنة العاشرة.
- هدم الصحابي الجليل سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه لخمس بقين من رمضان في السنة الثامنة البيت الذي كانت تعبد فيه العزى في نخلة، وقال للرسول صلى الله عليه وسلم: " **تلك العزى ولا تعبد أبدا** "، كما ذكر الإمام ابن كثير في البداية والنهاية. وذكر أيضا رحمه الله أنه في رمضان من السنة التاسعة من الهجرة قدم وفد ثقيف من الطائف إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يريدون الإسلام، وهُدمَ فيه صنم اللات الذي كانت تعبده ثقيف.

• فتح الأندلس:

وفي 28 رمضان من سنة 92 للهجرة (711 م) فتح الأندلس بقيادة طارق بن زياد بعد أن هزم رودريق قائد القوط في موقعة حاسمة تعرف بـــ " **موقعة البحيرة** " وبعد أن استولى على مضيق جبل طارق وأحرق سفنه قال كلمته المشهورة: " البحر من

ورائكم والعدو من أمامكم ". ثم تم بعدها فتح قرطبة وغرناطة وطليطلة العاصمة السياسية للأندلس..

- **موقعة الزلاقة:**

في صبيحة يوم الجمعة في 25 من رمضان سنة 479 من الهجرة حدثت موقعة الزلاقة (سهل يقع على مقربة من البرتغال الحالية) أو يوم العروبة والإسلام وانتصر فيها جيش المرابطين المسلمين في الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين على جيش الفرنجة البالغ عدده ثمانين ألف مقاتل بقيادة الملك ألفونس..

- **موقعة عين جالوت:**

يقول الشيخ ياقوت الحموي في " **معجم البلدان** ": عن جالوت: هي بليدة لطيفة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين كان الروم قد استولوا عليها مدة ثم استنفذها منهم صلاح الدين الملك الناصر بن أيوب في سنة 579 للهجرة. وفي صبيحة يوم الجمعة في الخامس عشر من رمضان سنة 658 للهجرة(9 / 1260 م) حدثت موقعة عين جالوت بقيادة السلطان قطز سلطان المماليك في مصر بعد أن صاح بأعلى صوته " **وإسلاماه** " وانتصر فيها على المغول الذين ولوا الأدبار لا يلوون على شيء.وتم فيها توحيد مصر وبلاد الشام. فليت هذه الأيام الشهيرة تعود !!.

وإن دلت هذه الحوادث على شيء فإنما تدل على أن الإسلام هو دين الحق وأنه لا يزال ظاهرا على الدين كله من حيث هو دين. فهو الدين القوي بذاته، القوي بطبيعته، الزاحف بلا سيف ولا مدفع

من أهله لما في طبيعته من استقامة مع الفطرة ومع نواميس الوجود الأصيلة، ولما فيه من تلبية بسيطة عميقة لحاجات العقل والروح، وحاجات العمران والتقدم، وحاجات البيئات المتنوعة من ساكني الأكواخ إلى سكان ناطحات السحاب.

وما من صاحب دين غير الإسلام ينظر في الإسلام نظرة مجردة من التعصب والهوى حتى يقر باستقامة هذا الدين وقوته الكامنة وقدرته على قيادة البشرية قيادة رشيدة، وتلبية حاجاتها النامية المتطورة في يُسر واستقامة كما صرح بذلك علانية الأمير شارلدز ولي العهد البريطاني في إحدى محاضراته بجامعة أوكسفورد أمام جمهور غفير من العلماء والباحثين حيث حث على التسامح وعلى التفاهم بين عالمي الغربي والإسلامي لأن الإسلام كما قال " جزء من تراثنا وهو الذي صنع الحضارة الأوروبية التي اعتقدناها خطأً أنها من صنع الغرب ".

فوعد الله قد تحقق في الصورة السياسية الظاهرة قبل مضي قرن من الزمان بعد البعثة المحمدية ووعد الله ما يزال متحققا في الصورة الموضوعية الثابتة وما يزال هذا الدين ظاهرا على الدين كله بل إنه هو الدين الوحيد الباقي قادرا على العمل والقيادة في جميع الأحوال.. ولعل أهل هذا الدين هم وحدهم الذين لا يدركون هذه الحقيقة اليوم، فغير أهله يدركونها ويخشونها ويحسبون لها في سياساتهم كل حساب...

مؤلفات للشيخ الطاهر بدوي

باللغـــة العربيـــة

- حالة المسلمين اليوم وأزمات الأسرة المعاصرة
- رسالة إلى لبيب
- لبيك ياقدس
- إشراقات أحكام في حكم
- معالم قرآنية في صراعنا مع اليهود
- طريقة التلقيح حول حقيقة سيدنا المسيح
- ادخلوا في السلم كافة
- الأهداف التي نريدها لتربيتنا المتجددة
- طواف حول ثورتنا التحريرية الخالدة
- التسامح روح الإسلام وقوة المسلمين
- عبر أجواء رمضان المبارك
- مفهوم المساواة في الإسلام وأبعادها
- الحلاج بين التصوف والزندقة.

باللغـــة الفرنسيـــة

- TULIPES DU PARADIS
- A SA SAINTETE LE PAPE QUE DIEU LE GUIDE ET NOUS MEMES DANS LE DROIT CHEMIN !!!
- RAMADAN, CE MOIS DE JEÛNE, DE PIETE ET DE SACRIFICE,FACE A LA MONDIALISATION DEVORANTE

باللغتين: عربيـــة وفرنسيـــة

■ رمضان شهر صيام وشهر القرآن

■ DE LA SPLENDEUR DE RAMADAN

■ الزكاة وآثارها في تهذيب النفوس وترقية المجتمعات

■ PAR LA ZAKÂT SUR LES BIENS, UN EQUILIBRE SOCIAL SANS EGAL !!!

■ مكانة الحج في الإسلام

▪ POUR TOUT PELERINAGE, UN BILAN SPIRITUEL S'IMPOSE AU PREALABLE !!!

■ على أثر الهجرة النبوية المباركة

▪ PARMI LES NOBLES RESULTATS DE L'HEGIRE

■ في صحبة النبي المصطفى في ذكرى مولده

▪ DU CARACTERE MIRACULEUX DE LA NAISSANCE DU PROPHETE MOHAMMED، SALUT DIVIN SUR LUI

■ ما أكرم النساء إلا كريم ولا أهانهن إلا لئيم

▪ DE LA FEMME, CETTE PERLE QUE L'ISLAM CHERIT TANT!!!

■ بأكرم الخلق كنا أكرم الأمم

▪ NOTRE PROPHETE MOHAMMED,
OU LA MISERICORDE POUR LES UNIVERS

■ هدي المنَّان إلى أسرار رجب وشعبان

▪ DES VERTUS ASCENSIONNELLES DE RADJEB ET CHA'BAN

■ غزوات وفتوحات عِبَر ودروس

■ GRANDE BATAILLE DE BADRE

■ إلى أي علم يدعو الإسلام الحنيف

▪ FOI, SCIENCE ET RAISON
A BASE DU VRAI ET DU BEAU

▪ نظام الاقتصاد في الإسلام

▪ DU SYSTEME ECONOMIQUE DE L'ISLAM

▪ إلى كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد!!!

▪ NOTRE PROPHETE, AUJOURD'HUI PLUS QU'HIER, ENTRE LES ELOGES ET L'HERESIE DE L'OCCIDENT !!!

▪ في رحاب ذكرى مولد الرسول الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

▪ DU CARACTERE MIRACULEUX DE LA NAISSANCE DU PROPHETE MOHAMMED، SALUT DIVIN SUR LUI

▪ مفاهيم يجب أن تصان

▪ **Pour un équilibre de la personne humaine !**

À base d'une justice équitable !

فهرس المحتويات